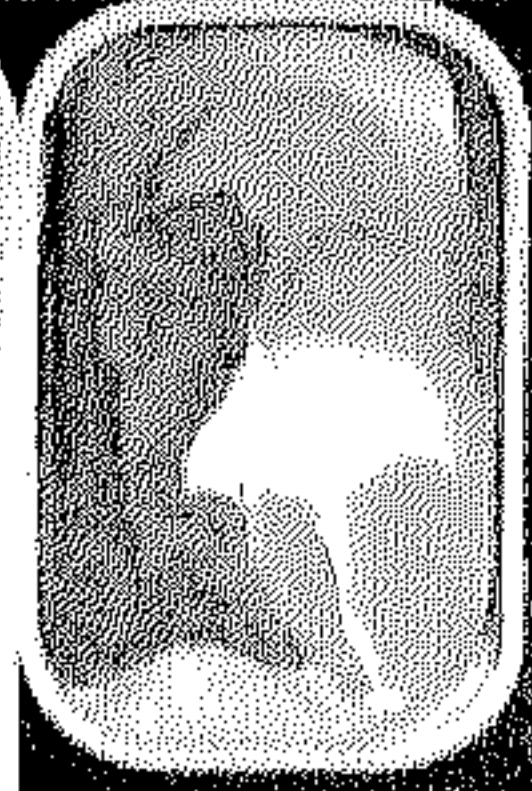
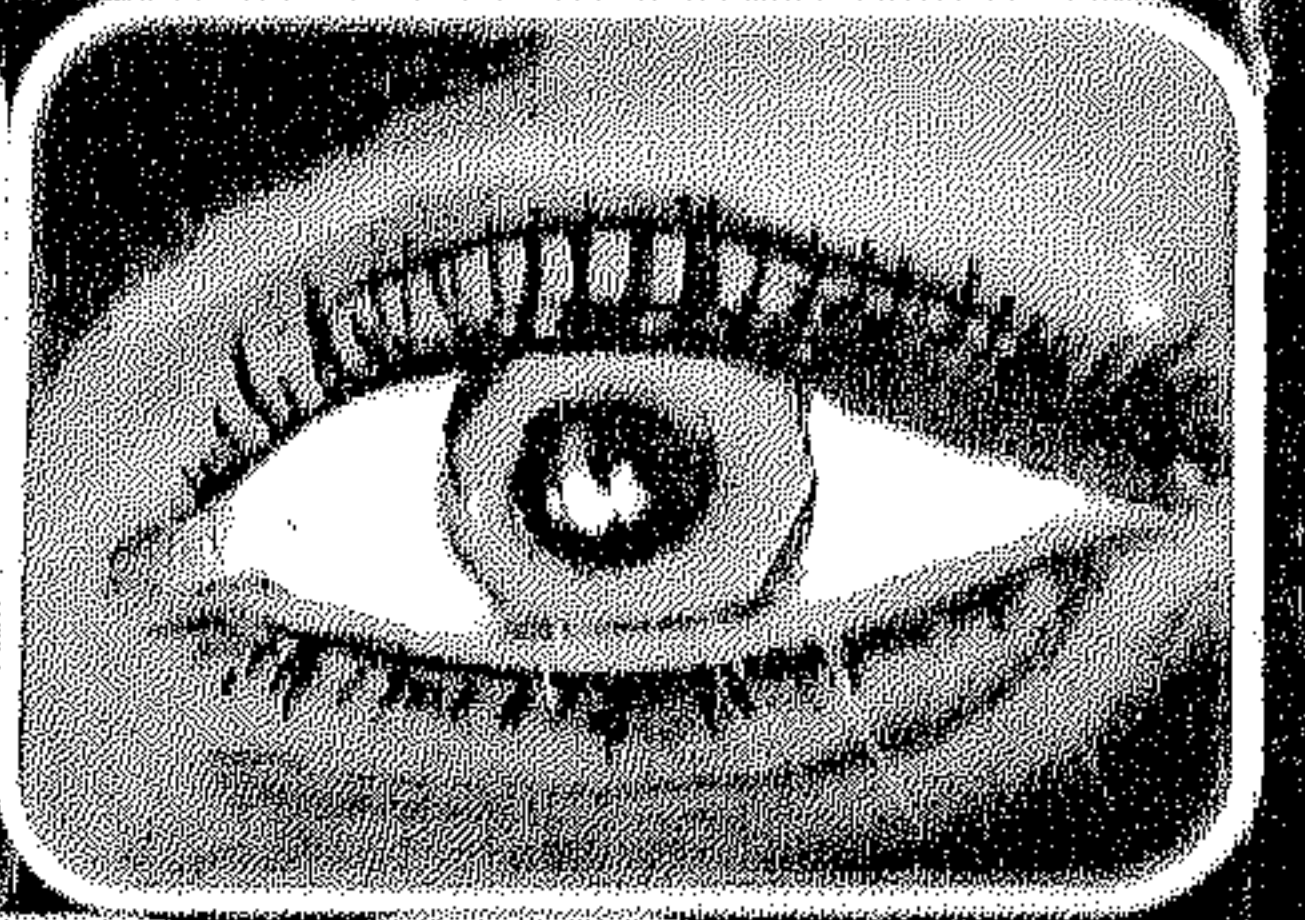
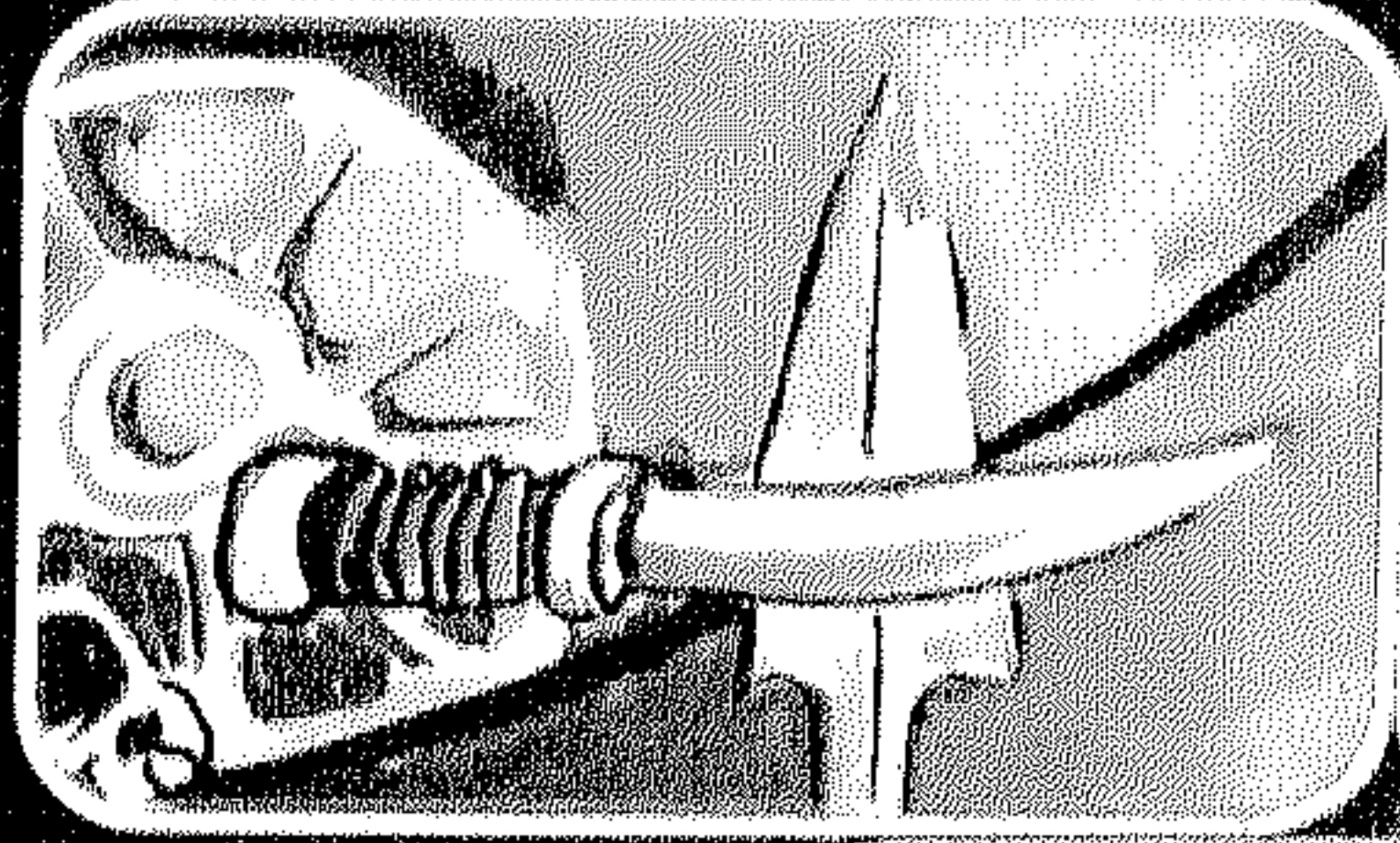
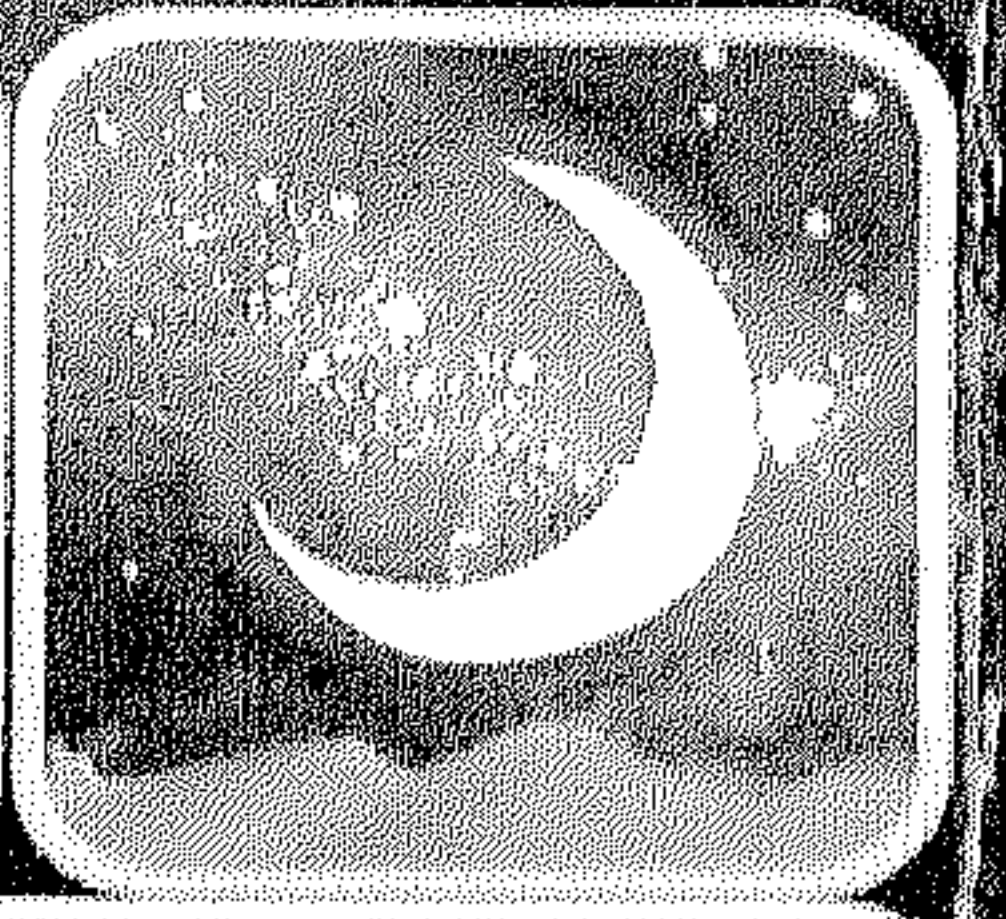
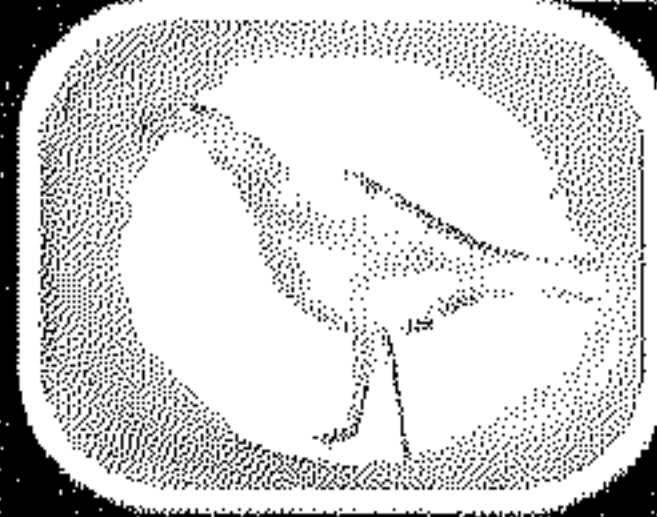


سمير فراج

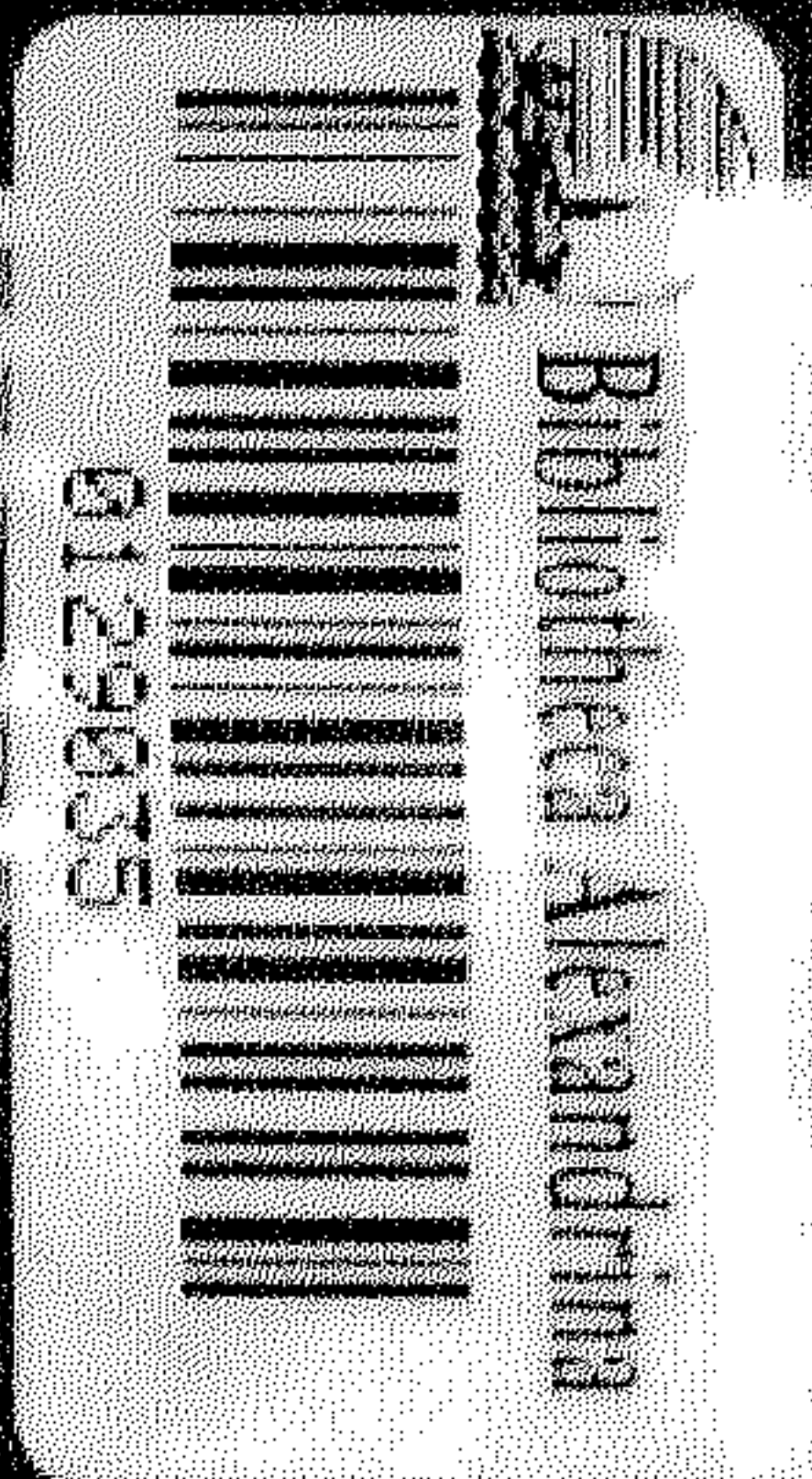


سمير فراج



الصحراء

والعلم للصحراء



928

مكتبة مدينتي الصغير

شعراء
قتلم
شعرهم

الناشر : مكتبة مدبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ١٣٠٦٠ / ٩٦
الترقيم الدولي : 7-014-236-977
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٩٩٧م - ١٤١٧هـ

كشمبيوتر : كايرو ميديا

شعراء قتلهم شعرهم

تعمير مصطفى فراج

إهداء

إلى قُرتي عيني

" لبني " و " نزار "

هذا هو الشعر " فلا تقربا هذه الشجرة "

أبوكما

سمير فراج

شعراء قتلهم شعرهم

هَدِيبَةُ بِنِ خَشْرَمٍ

قتل شاعراً... وقتله بيت شعر

هو هدبة بن خشرم بن كرز من بني عامر بن ثعلبة من بادية الحجاز، وكان شاعراً متقدماً
فصيحاً وراوية للحطيثة. كان هدبة مع رهط من قومه في طريقهم من الشام للحجاز
قاصدين الحج وكان معهم زيادة بن زيد وهو من بني رقاش بن قره وكانت مع هدبة أخته
فاطمة فتغزل بها زيادة قائلاً:

عوجى علينا واربعى يافاطما	مادون أن يرى البعير قائما
الأتريسن الدمع منى ساجما	حذار دار منك لن ثلاثما
فمرجت مطرداً عراهما	فعمأ ييذ القطف الرواسما

وأطال زيادة في قصيدته فغضب هدبة ورد عليه بأن تغزل في أخته وكانت تسمى أم
خازم، فقال:

لقند أرانى والغلام الخازما	نزجى المطى ضمراً سواهما
متى تظن القلص الرواسما	والجلة الناجية المياهما
يبلغن أم خازم وخازما	إذا هبطن مستخيراً قائماً

فسبه زيادة، ورد عليه هدبة وطال بينهما ذلك حتى صاح بهم القوم: اركبا لاحملكما
الله، فإننا قوم حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر فظلوا يعظونهما حتى سكت كل منهما على
ما في نفسه. لكن هدبة كان أشد حنقا على زيادة ورأى أنه غلبه وضامه فقد تغزل في أخته
فاطمة وهي حاضرة سامعة، بينما تغزل هدبة في أم خازم أخت زيادة وهي غائبة لاتسمع
غزله فيها فمضيا ولم يكلم أحدهما الآخر حتى قضيا حجهما وعادا إلى مضارب قوميهما.
ومن يومها صارت عداوة بين هدبة وزيادة، ظهرت بوادرها في المعارضات الشعرية، فكان

كل منهما يحاول العلو علي صاحبة في الشعر ويرد الثاني محاولاً أن يبز قول الأول، ومن ذلك ما قاله زيادة:

أراك خليلاً قد عزمت التجنباً وقطعت حاجات الفؤاد فأصبحنا
فهلا صرمت والحبال متينة أميمة إن واشى وشى وتكذبنا
إذا خفت شك الأمر فارم بعزيمة غيابه يركب بك الحزم مركبنا
يلام رجال قبل تجريب غيبهم وكيف يلام المرء حتى يجربنا

فرد عليه هذبة بقوله:

تذكر شجواً من أميمة منصباً تليداً ومنتاباً من الشوق مجلباً
تذكر حبا كان في ميمة الصبا ووجداً بها بعد المشيب معتباً
إذا كان ينساها الفؤاد ذكرتها فيالك من عنى الفؤاد وعدباً
غدا في هواها مستكينا كأنه خليع قداح لم يجد متنشبا

لكن هذبة لم يشفه ما قال من شعر ولم يشعر بزهو الانتصار على خصمه، فلم يزل يتحين الفرصة للانتقام من زيادة حتى وجدها فقتله. وكان سعيد بن العاص واليا على المدينة، فهرب هذبة مخافة القصاص، فجاء بن العاص بأهله وحبسهم، ولما علم هذبة بذلك، رجع وأمكن من نفسه ليخلص أهله، فأرسله بن العاص إلى معاوية ليرى فيه أمره، فلما صاروا بين يدي معاوية، قال عبد الرحمن أخو زيادة: يا أمير المؤمنين أشكو إليك مظلمتي وقتل أخي وترويع نسوتي.. فقال معاوية: يا هذبة قل، فقال هذبة: إن شئت أن أقص عليك قصتنا كلاماً أو شعراً فعلت، قال: لا، بل شعراً، فقال هذبة مرتجلاً:

رُمينا فرامينا فصادف رمينا منايا رجال فى كتاب وفى قدر
وانت أمير المؤمنين فمالنا وراءك من معدى ولاعنك من قصر
فإن تك فى أموالنا لم نضق بها ذراعاً وإن صبراً فنصبر للصبر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت بقتل صاحبهم

قال هدبة: هو ذاك

ولم يكن لزيادة ولد إلا فتى صغير يسمى «المسور» لم يبلغ الحلم فقال معاوية لعبد الرحمن أخى زيادة: إنك لاتؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمسور أحق بدم أبيه، ورده معاوية إلى المدينة فحبس بها ثلاث سنوات حتى بلغ المسور، وخلال سنوات حبسه كان هدبة يرسل إلى عبد الرحمن يستعطفه ويرجوه أن يقبل الدية، لكن عبد الرحمن أياسه من ذلك وأصر على القصاص. ولما بلغ المسور بن زيادة الحلم أخذه عمه عبد الرحمن إلى والى المدينة سعيد بن العاص، فأخرجوا هدبة ليقتل وبينما كان هدبة ماشياً من السجن للقتل، التفت فرأى زوجته وكانت من أجمل النساء، فقال لها:

ألقى على اللوم يأم بوزعاً ولاتعجبنى بما أصاب فأوجماً
ولاتنكحى إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأترعاً
وحلى بذى أكرومة وحمية وصبراً إذا ما الدهر عض فأسرعاً

فقالت زوجته للوالى: إن لهدبة عندى وديعة فأمهله حتى آتية بها. فقال لها الوالى: أسرعى فإن الناس قد كثروا. فذهبت إلى جزار فى السوق وأخذت منه شفرته ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها ثم رجعت إلى هدبة وقالت: أترانى متزوجة بعد ماترى؟

قال هديبة: لا، الآن طابت نفسي بعد بالموت، ثم التفت فرأى أبويه فى أسوأ حال وقد توقعا الشكل، فقال لهما:

أبليانى اليوم صبراً منكما إن حزناً إن بدأ بآدىء شر
لأرانى اليوم إلا ميتاً إن بعد الموت دار المستقر
اصبر اليوم فإنى صابر كل حى لقضاء وقدر

اقتربت ساعة هديبة، وبلغت القلوب الحناجر، فهذا أول من أُقيد منه فى الإسلام، وراحت العيون تتحاور والأنفاس تتنافر، وراحت أمه تذكر قول الكاهنة التى رأت أبناءها الأربعة فقالت لها: إن الذى معى يخبرنى عن بنيك هؤلاء بأمر، قالت وما هو؟ قالت: أما هديبة وأخوه حوط فيقتلان صبراً، وأما الواسع وسيحان فيموتان كمدأ.

أراد سعيد بن العاص أن يبذل محاولة أخيرة، فقال لعبد الرحمن أخى زيادة: اقبل الدية وأنا أعطيك ما لم يُعطه أحد من العرب، أعطيك مائة ناقة حمراء، ليس فيها جداء ولا ذات داء فقال عبد الرحمن: والله لو نقبت لى قبتك هذه ثم ملأتها ذهباً، مارضيت بها من دم هذا الأجدع، فلم يزل سعيد يسأله ويزيد فى عرضه فيأبى، ثم قال عبد الرحمن: إنه قال بيتاً لو لم يقله لقبلت الدية أو صفحت بغير دية، والله لو أردت شيئاً من ذلك لمنعنى قوله:

لنجدعن بأيدينا أنوفكم ويذهب القتل فيما بيننا هدرا

فدفعوا بهديبة ليقتل فبدت فى عينيه حسرة، وماندم بشرُّ على قول كما ندم هديبة على قوله هذا البيت، واستأذن فى أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى الناس حوله وقال: لولا أن يُظن بى الجزع لأطلتهما فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما، ثم

التفت إلى قوم زيادة قائلاً:

فإن تقتلونى فى الحديد فإنى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيد

فقال عبد الرحمن: والله لانقتله إلا مطلقاً من وثاقه، ثم قال:

قد علمت نفسى وأنت تعلمه لأقتلن اليوم من لأرحمه

ثم دفع السيف إلى المسور بن زيادة وقال له: قم فاقتل قاتل أبىك، فقام المسور فضربه ضربتين قتله فيهما. ومات هدبة، أما امرأته التى جدعت أنفها وقطعت شفيتها فقد تزوجت بعده وأنجبت ولدين.

شعراء قتلهم شعرهم

كعب الأشقرى

هجا بن أخيه فقتله بتحريض من بن المهلب

هو كعب بن معدان الأشقري، من قبيلة الأزد، كان خطيباً وشاعراً، من المعدودين في الشجعان، وكان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة وقد مدحه ومدح أبناءه ورافقهم في حروبهم مع الأزارقة، وقد أوفده المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج مبشراً بانتصاره على الأزارقة فأنشده من مدائحه فيهم قوله:

لولا المهلب مازرنا بلادهم	مادامت الأرض فيها الماء والشجر
ومامن الناس من حى علمتهم	إلا يرى فيهم من سيبكم أثر
فما يجاوز باب الجسر من أحد	قد عضت الحرب أهل الجسر فأنجروا

فضحك الحجاج وقال له إنك لمنصف يا كعب، أخطيب أنت أم شاعر فقال شاعر وخطيب، فقال له كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم أيسنا منهم، فإذا لقيناهم بجهدنا طمعنا فيهم، قال الحجاج: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة للحريم نهاراً وفرسان بالليل أيقاظاً، قال صفهم رجلاً رجلاً، قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية وصعدة عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب وبحر جم العباب، وجوادهم قبيصة ليث المغار وحامى الدمار، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركة، فكيف لا يفر من الموت الحاضر والأسد الخادر وعبد الملك سم ناقع وسيف قاطع، وحبيب الموت الزعاف، إنما هو طود شامخ وفخر باذخ. قال الحجاج: فأيهم أفضل؟ قال كعب: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أدركوا ما رجوا، وأمنوا ما خافوا، وأرضاهم العدل وأغناهم النفل، قال: فكيف رضاهم عن المهلب؟ قال: أحسن رضى وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضى الوالد ولا يعدم منهم بر الولد. فقال الحجاج: المهلب كان أعلم بك حيث بعثك وأمر له بعشرة آلاف درهم وأرسله إلى عبد الملك بن مروان بهذه البشرية، فأنشده كعب قوله في المهلب

وأولاده:

براك الله حين براك بحراً
وفجر منك أنهاراً غزارا
بنوك السابقون إلى المعالي
إذا ما أعظم الناس الخطارا
كأنهم نجوم حول بدر
درارى تكمل فاستدارا

فاستحسن عبد الملك قوله، وقال لمن حوله من الشعراء: يامعشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد الأبخر، والجبل الوعر والملح الأجاج؟ ألا قلت كما قال كعب في المهلب وولده، وأنشدهم قصيدة أخرى لكعب يمدح فيها المهلب.

وهكذا عرف كعب الأشقري بولائه للمهلب وأبنائه من بعده خاصة يزيد الذى كان يقربه ويخلع عليه العطايا والهبات.

ولمكانته عندهم كانوا لا يسمحون للشعراء بهجائه، بل المهلب نفسه تدخل بين الأزد - قبيلة كعب - وعبد القيس حينما قامت بينهما حرب، فسكنها وأصلح بينهما وتحمل ما أحدثه كل فريق وأدى دياته، لكن كعبا هجا عبد القيس بقوله:

إنى وإن كنت فرع الأزد قد علموا
أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالى
فهم أبو مالك بالمجد شرفنى
ودنس العبد عبد القيس سربالى

وكان فى عبد القيس شاعر هجاء يسمى زياداً الأعجم، وقد بلغه قول كعب فغضب وقال: يا عجباً للعبد بن العبد بن الحيتان والسرطان، يقول هذا فى عبد القيس وهو يعلم موضعى فيهم والله لأدعنه وقومه غرضاً لكل لسان، ثم قال يهجوهُ:

نبئت أشقر تهجوننا فقلت لهم
ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا

لايكثرو وإن طالت حياتهمُ ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا
قسوم من الحسب الأدنى بمنزلة كالفقع بالقع لأصل ولاورق
إن الأشاقر قد أضحوا بمنزلة لو يرهنون بنعلى عبدنا غلقوا

فشكاه كعب إلى المهلب وقال له إنك المقصود بهذا الهجاء، فقال المهلب: أنت أسمعنا هذا وأطلقت لسانه فينا به وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد، فاكفف عن ذكره فأنت الذى بدأته، ثم دعا بزياد فعاتبه، فقال زياد: أيها الأمير، قد سمعت ما قاله فى وفى قومى، فإن كنت ظلمته فانتصر له، وإلا فالحجة عليه، ولا حجة على امرىء انتصر لنفسه ولحسبه وعشيرته، ولولاك أيها الأمير ما قصرت فى هجائه. فأقسم المهلب عليهما أن يصطلحا، فكف كل منهما عن الآخر.

وهكذا كان المهلب يدافع عن كعب بمنصبه ويدافع عنه كعب بشعره. وكان الحجاج قد كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطنه ويضعفه ويعجزه فى تأخير أمرهم ومطاولتهم.

فقال المهلب لرسول الحجاج: إنما البلاء أن الأمر لمن يملكه لا إلى من يعرفه، فإن كنت نصبتى لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى، فإن أمكنتنى الفرصة انتهزتها، وإن لم تمكنى توقفت، فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، فإن أردت منى أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان خيراً فلك، وإن كان شراً فعلى فابعث من رأيت مكانى.

فقام كعب الأشقرى فأنشد أمام رسول الحجاج قوله:

إن بن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحيبة الأقطار

من أرض سابور والجنود وخيلنا . مثل القداح بريتها بشفار
من كل خنذير يرى بلباناه وقع الظلمات مع القنا الخطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كل مخالف الأقتار
فدع الحروب لشيبيها وشبابها وعليك كل خزينة معطار

فبلغت هذه الأبيات إلى الحجاج فكتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه، فأعلم المهلب كعباً بذلك، وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ومعه رسالة يسترضيه فيها عن كعب، فرضى عبد الملك عنه، ولمكانة الحجاج عند بنى أمية رأى عبد الملك أن يرسل كعباً إليه بكتاب منه وفيه يقسم عليه أن يعفو عنه ويعرض عما بلغه من شعره. فلما وصل كعب إلى الحجاج قال له: إيه يا كعب.

ورأى معاودة الدباغ غنيمة، فقال كعب: أيها الأمير والله قد وددت في بعض ماشاهدته في تلك الحروب وأزماتها وفي ما يوردنا المهلب من خطرها أن أنجو منها وأكون حجاجاً أو حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعتك ما أسمع، فالحق بصاحبك ورده إلى المهلب.

ويبدو أن علاقة كعب لم تكن طيبة مع يزيد بن المهلب فكان يحرض عليه الولاة ويدفعهم إلى ترك أعماله، وكان يزيد قد ولى عمر بن عمير بلدة بحرية بين البصرة وعمان يقال لها «الترم» فقال له كعب: أنت شيخ من الأزديوليك «الترم» ويولى ربيعة الأعمال السنية! ثم أنشده قوله:

لقد فازت ربيعة بالمعالي وفاز اليحمدي بمهندزم
فإن تك راضياً منهم بهذا فزادك ريناً غماً بغم

فلما سمع عمرو بن عمير اليحمدي هذا الشعر من كعب أنف أن يقبل هذه الولاية ورد
عهد يزيد عليه، فحلف يزيد ألا يستعمله سنة، فكانت سنة جذب وقرر على عمرو الذي
ندم على ترك هذه الولاية وقال لكعب:

لو كنت خليتي يا كعب متكئاً في دور زمّ لما أقفرت من علف
ومن نبيذ ومن لحم أعل به لكن شعرك أمر كان من خرفي
إن الشقي مرو من أقام بها يقارع السوق من بيع ومن سلف

ولما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ووليها قتيبة بن مسلم مدحه كعب، ونال من يزيد
وثلبه وهجاه، ثم بلغه أن يزيد قد وليها مرة أخرى، فهرب كعب تاركاً مرواً وخراسان كلها
إلى عمان وأقام بها فترة ثم كرهها لسوء أحواله بها ولم يجد بها من يمدحه ويقربه ويعطيه،
فكتب إلى يزيد بن المهلب معذراً:

بش التبديل من مرو وساكنها أرض عمان وسكني تحت أطواد
يضحي السحاب مطيراً دون منصفها كأن أجبالتها علت بفرصاد
يالهدف نفسي على أمر خطلت به وماشفيت به غمري وأحقادي
أفريت خمسين عاماً في مديحكُم ثم اغتررت بقول الظالم العادي
أبلغ يزيد قرين الجود مألوكه بأن كعباً أسير بين أصفاد
فإن عفوت فبيت الجود بينكمُم والدهر طوران من غي وإرشاد
وإن مننت بصفح أو سمحت به نزعت نحوك أطنابي وأوتادي

لكن يزيد لم يسامحه ولم يصف له على الرغم من أن أبنه مجزأة رجاء في ذلك، فداهنه

يزيد حتى رجع وتخير له قاتلاً من قرابته هو ابن أخيه الذي كانت بينهما عداوة وتباعدو قد هجاه كعب بقوله:

إن السواد الذي سربت تعرفه ميراث جدك عن آبائه النوب
أشبهت خالك، خالك اللوم مؤتسياً بهديه سالكاً في شر أسلوب

فلم يجد بن المهلب إلا ذلك الفتى ليقتل عمه، وقد أغراه بالمال.

شعراء قتلهم شعرهم

عبيد بن الأبرص

رثى نفسه... فقتله المنذر بن ماء السماء

هو عبید بن الأبرص بن جشم، من بنى أسد التي قتلت حُجراً ملك كندة وأبا امرئ القيس.

اعتبره محمد بن سلام الجمحي من فحول شعراء الجاهلية ووضعه في الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد. وقد أحاطت الأساطير بسيرة عبید بن الأبرص كما لم تحط بشاعر قبله، فهناك قصة حول قوله الشعر، أو هي أسطورة إذا عملنا عقولنا فيها، ونحن لا نملك غير ذلك.

تقول القصة إن عبیدا كان رجلاً فقيراً وقد أقبل ذات يوم بغنمه يسقيها ومعه أخته ماويا، فلما ورد الماء منعه رجل من بنى مالك وصدده صداً عنيفاً، فرجع حزينا مهموماً لا يدرى ما يفعل ولا يجد سبيلاً على هذا الرجل فاستظل بشجرات ونام، ونامت أخته إلى جواره، فنظر إليهما خصمه وقال راجزاً:

ذاك عبید قد أصاب ميا ياليتته القحها صبيا

فحملت ووضعت ضاويها

وعلى الرغم من أن عبیداً كان جاهلياً إلا أنه لم يجد من يستنصره على هذا الرجل وافتراءاته إلا الله، فرفع يديه مبتهلاً قائلاً: اللهم إن كان هذا ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدلى منى منه - أى اجعل لى منه دولة وانصرنى عليه - ووضع رأسه فنام.

ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأتاه آت فى المنام بكبة من شعر فألقاها فى فمه، ثم قال له قم، فقام وهو يرتجز هاجياً بن مالك وكانوا يسمون بنى الزنية، فقال فيهم:

يا بنى الزنية ما غركم لكم الويل بسريال حُجر

ثم أصبح عبيد بن الأبرص بعد ذلك شاعر بنى أسد الذي لا يدافعه أحد.

وفى أسطورة أخرى كان عبيد مسافراً في ركب من قومه وبينما هم يسرون إذا بشعبان يتملك على الرمال الملتهبة فاتحاً فمه من شدة العطش، وكانت مع عبيد جرعة ماء قليلة لا يملك غيرها، فنزل وسقى الشعبان الجرعة كلها حتى روى وانتعش وانساب في الرمال. فلما جن الليل ونام القوم هربت رواحهم فلم يروا أثراً لشيء منها، فقام كل واحد منهم يبحث عن راحلته، فتفرقوا، وقد أيقن عبيد أنه هالك لا محالة، وإذا هو بهاتف يهتف به قائلاً:

يا أيها السارى المضل مذهبة دونك هذا البكر منا فاركبه
وبكرك الشارد أيضاً فاجنبه حتى إذا الليل تجلى غيبه

فحط عنه رحلة وسيه

فقال عبيد: نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت؟

فقال له الهاتف:

أنا الشجاع الذي ألفيته رمضاً فى قفرة بين أحجار وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فيه ولم تينخل بإنكاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فركب عبيد الجمل وظل يبحث عن ناقته حتى وجدها ثم جنبها - أى قادها بجانبه - فبلغ أهله مع الصباح فنزل عنه وحل رجليه وخلاه فغاب عن عينه.

من الواضح أن هذه القصة أسطورة صاغت أسفار العرب الطويلة فى رحلة من رحلات الشتاء أو الصيف، حيث الليالى لاتقطعها الرواحل وإنما تقطعها الأسمار العذبة والأشعار

البديعة والأخبار الغريبة.

ويحكى أسطورة ثالثة، سيقف الكاتب، الذى ولى ولاية فنزل بيت صديق له مر عليه، فأصابوا من الطعام والشراب ما أصابوا، ثم غلبهم النبيذ فناموا، فانتبه سيف من نومه فإذا بكلب قد دخل على كلب صاحب البيت، فأخذا يتصافحان وقد فرح كل منهما بصاحبه، ثم أخذ الكلب الزائر يخبر صاحبه عن طريقه وطول سفره، وسيف لا ينكر من كلامهما شيئاً، وقال له: هل عندك شىء تطعمنيه؟ قال نعم قد بقى لهم فى موضع كذا وكذا طعام وليس عليه غطاء، فذهبا إليه وأكلاه، ثم سأله نبيذاً فقال: نعم، فذهبا إليه فشرباه، ثم قال له: هل تطربنى بشىء؟ قال: إى وعيشك، صوت كان أبو زيد يغنيه فيجيده، ثم غنى الكلب صاحبه من شعر عبيد بن الأبرص قوله:

طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلتم لميماد

إنى اهتديت لركب طال سيرهم فى سبب بين دكداك وأحقاد

فلم يزل الكلب يغنى صاحبه حتى فنى النبيذ، ثم استأذن الكلب الزائر فى الانصراف، فأذن له صاحبه.. ومضى.

يقول سيف الكاتب صاحب القصة: فخفت والله على نفسى أن أذكر ذلك لصاحب المنزل، فأمسكت. وما أذكر أنى سمعت أحسن من ذلك، إن لم تكن هذه القصة أسطورة فهى حلم رآه سيف الكاتب، ويبدو أن صاحبه الذى استضافه قد أحسن عشاءه وسقايته فلم يستطع أن يميز بين الحلم والحقيقة لفرط ما كان غارقاً فيه من شبع ورى.

أو ربما كان هناك شىء فى نفس سيف تجاه أبى يزيد المغنى، فحاك هذه القصة وحبكها ليقول للناس إن غناء الكلاب أحسن من غناء أبى يزيد.

وقد عاصر عبيد بن الأبرص امرأ القيس وكانت له جولة معه بعد أن رفض ما عرضه بنو
أسد من دية لقتل أبيه أو تقديم شريف من أشرافهم مقيداً ليقتل بدم حُجر، لكنه أمهلهم
حتى تضع الحوامل ما في بطونها وقد توعدهم قائلاً: ثم إنكم ستعرفونني في فرسان قحطان
أحكم فيكم بالسيوف وشبا الأسننة حتى أشفي نفسي وأنال ثأري، فقال عبيد في ذلك:

يا ذا المخوفينا بقند

مثل أبيه إذ لالأوحينا

أرغمت أنك قد قت

لت سراتنا كذباً ومينا

هلا على حجربن أم

قطبام تبكى لاعلينا

إننا إذا عض الثقفان

برأس صدعتنا لوينا

نحسى حقيقتنا وبعم

ض الناس يسقط بين بينا

هلا سألت جموع كن

دة يسوم ولسوا أيننا

أيام نضرب هامهلم

بيواتر حتى انحنينا

وجموع غسان الملو

ك أتينهم وقد انطوينا

لحقا أياطلهن قد

عاجن أسفارا وأينا

نحن الألى فأجمع جمو

عك ثم وجههم إلينا

واعلم بأن جيادنا

ألين لا يقضين ديننا

ولقد أبحننا ما حميت

ولامبيح لما حمينا

كم من رئيس قد قتل

ناه وضميم قد أبينا

ولرب لسيد معشر ضخم الدسيعة قد رمينا

ولكن امرأ القيس كان مشغولاً بشأراً أبيه فلم يرد عليه ثم دارت رحى الحرب بين كندة
وبنى أسد حتى قتل قيصر الروم امرأ القيس وانتهت هذه الحرب.

مقتله

كان للملك المنذر بن ماء السماء يومان، يوم يؤس ويوم نعمة، فإذا كان في يوم نعمة أتى
بأول من يراه فحباؤه وكساؤه وأعطاه من إبله مائة، ونادمه يومه، فإذا كان في يوم يؤسه أتى
بأول من يراه فيأمر به فيذبح، وبينما النعمان جالس في يوم يؤسه إذ أشرف عليه عبيد بن
الأبرص، فقال لرجل كان معه: من هذا الشقي؟ فقال له: هذا عبيد بن الأبرص الأسدي
الشاعر يرمي فأتى به، فقال له الرجل الذي كان معه: أتركه أبيت اللعن، فإني أظن أن عنده من
حسن القريض أفضل مما تدركه في قتله، فاسمع منه، فإن سمعت حسنا استزدته وإن لم
يعجبك فما أقدرك على قتله. فنزل المنذر وطعم وشرب وهو جالس وبينه وبين الناس
حجاب يراهم منه ولا يرونه، فدعا بعبيد من وراء الستر:

فقال لعبيد صاحب له: هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد؟

فقال: أتتك بحائن رجلاه

فقال: ماترى يا عبيد؟

قال: أرى الحوايا عليها المنايا

فقال: فهل قلت شيئاً؟

قال عبيد: حال الجريص دون القريض (وهو يقصد أنه قد غص بريقه)

فقال: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب

لكن عبيداً لم يستطع أن يقولها وعزت عليه نفسه فرثاها بقوله:

أقفر من أهله عبيد فليس يبدي ولا يعيد

عنت له خطة نكود وحان منهاله ورود

فقال له صاحبه: أنشدني ويحك

فقال:

هي الخمر تُكنى بأم الطلى كما الذئب يكنى أبا جعدة، وهو هنا يشبه المنذر بالذئب الذي يكنيه الناس بأبي جعدة أي أبو الفعال الحسنة ولكن أفعاله كلها سوء وهو يقصد أن المنذر لا ينذر أحداً بل يغدر بالجميع وأبي عبيد أن ينشدهم شيئاً مما أرادوا فأمر به المنذر فقتل.

شعراء قتلهم شعورهم

أبو العبر

كان أحرق العرب ، فقتلته شيعة علي

هو أبو العباس محمد بن أحمد وينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب وكان في شبابه شاعراً معتدلاً جيد الشعر فلما شاخ ترك الجدد وعدل إلى الحمق حتى إن تاريخ الأدب العربي لم يرَ شاعراً أحقق منه، ومع ذلك فقد كسب بحمقه أضعاف ما كان يكسبه الشعراء بالجد والجيد وحقق أيام المتوكل شهرة كبيرة وثراءً عظيماً.

وعلى الرغم من أنه كان بن عم الخليفة إلا أن الناس كانوا يحتقرونه بل ويتعجبون من تقريب المتوكل له مع أنه معرة لبني آدم جميعاً فضلاً عن أهله الأقربين.

فهو أحقق جاهل فاسق بينما كان قوم آخرون يرون أن هذه الصفات ليست متأصلة فيه وإنما هو يفتعلها للكسب بعد أن رأى أشعار أبي تمام والبحترى وغيرهما من كبار الشعراء لا تفيد شيئاً ولا تحقق ثراءً، وكان فريق ثالث يرى أن يكون الشعر جيداً جيداً أو بارداً بارداً مثل شعر أبي العبر، فكانوا يضربون بشعره المثل في السخف والبرود.

أنشده صاحبة أبو العناء، قول المأمون:

مس كف وععضد	مالحبا لإقابلة
أنفد من نفث العقد	أو كتب فيهارقى
فإنما يغنى الولد	من لم يكن ذا حبة
إن نكح الحب فسد	مالحبا لإهكذا

فقال أبو العبر: كذب المأمون وأخطأ وأساء، ألا قال كما قلت:

وباض الحب في قلبى فـوا ويلى إذا فرخ

وأتبع هذا البيت بيتين لم تعرف العرب أفحش منهما ثم سألت صاحبه: كيف ترى؟

فقال: عجباً من العجب، قال أبو العبر: ظننت أنك تقول لا، فأبل يدي و أرفعها ثم سكت فبادر صاحبه وانصرف خوفاً من شره.

وكما كان للشعراء طقوساً في إنشادهم وإملائهم أشعارهم كانت لأبي العبر طقوسه التي تتناسب تماماً مع شخصيته، فقد كان يجلس على سلم وبين يديه إناء فيه ماء لجس وحمأة وبجانبه قصبه طويلة وعلى رأسه نعل وفي رجليه قلنسيتان بينما يجلس مستمليه في جوف بئر وحوله ثلاثة رجال يدقون بالهواوين حتى تكثر الضوضاء ويقل السماع ويملى على الرجل، فإن ضحك أحد من حضر قاموا فصبوا على رأسه من ماء «البلاعة» إن كان وضيعاً، فإن كان ذا مروءة رش عليه هو من مائها بالقصبه ثم يحبس في الكنيف إلى أن ينفذ المجلس ولا يخرج منه حتى يغرم درهمين.

سأله أعرابي عن هذه المحالات التي يتكلم بها وكيف يصل إليها فقال: أبكر فأجلس على الجسر ومعى الحبر والورق فأكتب كل شيء أسمع من كلام الداهب والجاهل حتى أملأ الورق من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً، فيجىء كلام ليس في الدنيا أحقق منه.

ولم يكن سلوكه أقل حمقاً من شعره، وقد رآه أعرابي واقفاً على شجرة في وادٍ بمنطقة سرّ من رأى وفي يده اليسرى قوس يرمى به كرات من الطين وعلى يده اليمنى عقاب، وعلى رأسه قطعة من رثة عنز ربطها في حبل مشدود بأنشوطة وعلى شفثيه آثار من شراب التمر وكان عارياً يربط على خصره شعراً مفتولاً وقد شد فيه شص قد ألقاه في الماء للسمك. فقال له الأعرابي: خرب الله بيتك أي شيء هذا العمل؟ فرد عليه أبو العبر قائلاً: أصطاد يا أحقق بكل جوارحي، إذا مربى طائر رميته عن القوس وإن سقط قريباً منى أرسلت إليه العقاب، والرثة التي على رأسي يجىء الخدأ ليأخذها فيسقط في الحبل وقد

جعلت في طرفه الأنشودة، وشراب التمر على شفتي أصطاد به الذباب فأجعله في الشص
 فيطلبه السمك فيقع فيه، والشص في خصري فإذا مرت به السمكة أحسست بها فأخرجتها.
 ويبدو أن أبا العبر قد أعيا المتوكل أمره ولم يستطع معاقبته عقاباً صارماً، لقرايته من
 ناحية، ولأنه كان يظن به الجنون من ناحية أخرى، فكان يضعه في المنجنيق ويرمى به إلى
 الماء، فكان إذا علا في الهواء صاح: الطريق الطريق، جاءكم المنجنيق، ثم يقع في الماء
 فيخرجه السباح، وفي مرة أخرى كان المتوكل يجلسه على زلاقة فينحدر فيها حتى يقع في
 بركة ثم يأمر رجاله فيطرحوا الشبكة فيخرجوه.

وفي ذلك يقول أبو العبر:

ويأمر بي الملك	فـيطرحني في البـرك
ويصطادني بالشـبـك	كـأني من السـمـك
ويضحك كك كك	كـك كـك كـك

وامتدت حماقات أبي العبر إلى بغداد فحبسه إسحاق بن إبراهيم المصعبي، وبينما هو في
 محبسه صاح في الحرس: لى نصيحة، فأخرجوه إلى إسحاق فقال: هات نصيحتك، فقال:
 على أن تؤمنني، قال إسحاق: قد أمنتك، قال أبو العبر: الكشكية أصلحك الله لا تطيب إلا
 بالكشك، فضحك إسحاق وقال: هو والله مجنون، فقال أبو العبر: لاهو امتخط حوتاً،
 فقال: ماتقصد بقولك امتخط حوتاً؟ فقال أبو العبر: زعمت أني مججت نوناً وما فعلت إلا
 امتخطت حوتاً، فكلمة مجنون قسمها أبو العبر إلى قسمين أولهما مج ويرادفهما امتخط
 وثانيهما نون ومرادفها حوت.

ففهم إسحاق ما قاله وتبسم وقال: أظن أني فيك مأثوم، فقال: لا ولكنك في ماء بصل،

فقال إسحاق: أخرجوه عنى إلى لعنة الله ولا يقيم ببغداد ولا يوماً واحداً فأرده إلى الحبس فعاد أبو العبر إلى سر من رأى.

ويبدو أن حماقته وفحشه كانا سببا في ضياع أغلب شعره، فلم يورد له الأصفهاني في كتابه «الأغاني» إلا بضع مقطعات صغيرة ولم تزد على ذلك المراجع العربية القديمة الأخرى، فلم أعث له في الغزل إلا على مقطعة صغيرة خالية من الحمق والسخف والخروج الذي اشتهر به، ويبدو أن قاله قبل أن يغير منهجه في الحياة وفي الشعر، وهي بوجودها تشير إلى شاعر غزل متمكن ذى حس مرهف وقلب نابض بالهوى، يقول فيها:

أظلم فجازيك بهرصاد	داء دفين وهوى بادي
أشمت بي صدك حسادي	يا واحد الأمة في حسنه
أخفى على أعين عوادي	قد كدت مما نالني في الهوى
يجعلها خاتمة الزاد	عبدك تحي نفسه قبله

إن نظرة لهذه الأبيات تجعلني أشك في أن قائلها اختار بمحض إرادته العدول عن هذا الشعر ليقول ماقاله من أبيات حمقاء سخيفة، ولست مع من تعللوا له بالرغبة في الشراء الذي لم يحققه غيره من الشعراء الجادين المجيدين، فقد كان أبو العبر ذا قرابة من الخليفة وهذا وحده كفيل بأن يغنيه أمير المؤمنين كما أغنى غيره من أقربائه، فضلاً عن عامة المسلمين.

ولكنني أرجح أن لوثة قد أصابت عقله فتحول هذا التحول الغريب، وهذا ليس غريباً على الشعراء فهم لركة إحساسهم من ناحية ولعبقريتهم من ناحية أخرى، أقرب الناس إلى الإصابة بالجنون، وتاريخ الأدب العربي ملئ بالشعراء المجانين أو المجانين الشعراء كقيس

بن الملوح صاحب ليلي الذي لم يشتهر باسمه وإنما اشتهر بصفة الجنون.

ولأبي العبر أبيات في الفخر تدل على أن قائلها صاحب نفس أبية عزيزة يصعب عليها أن تتحول بهذا الشكل، طلباً للمال، يقول:

وإذا ما الدهر ضمض عني	لم تجدني كافر النعم
قنعت نفسي بما رزقت	وتناهت في العلاهمي
ليس لي مال سوى كرمي	وبسه أمني من العدم

مقتله

ويبدو أن جنونه لم يبد في شعره وفي سلوكه فحسب وإنما بدا أيضاً في موقفه المذهبي، فقد كان شديد البغض لعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وله في العلويين هجاء قبيح، ويبدو أن المراجع لم تورد هذا الهجاء تكريماً لعلي وهو في الأمة من هو، وكان أبو العبر قد خرج إلى الكوفة ليرمي بالبندق مع الرماة من أهلها في الأشجار والكوفة موطن شيعة علي فقال فيه أبو العبر شعراً قبيحاً سمعه أحد الكوفيين فاستحل دمه وقتله وأغرقه.

شعراء قتلهم شعرهم

السُّيِّكُ بن السُّكَّة

كان من الصعاليك
واستجار بقوم وهجاهم فقتلوه

هو السليك بن عمرو من بنى مقاعس، أما السلكة فهي أمه وكانت أمه سوداء.

كان السليك من صعاليك العرب وهي طائفة من الشعراء ضمت الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براق وغيرهم، وكانوا يعيشون حياة مختلفة عن حياة العرب، فهم على فقرهم يتميزون بالأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، بل يعتمدون في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة العدو والهجوم الخاطف والسلب والنهب والبطش بالأعداء مع الحرص على البر بالضعفاء والمحتاجين.

وكرت أشعاهم التي تلعن الصعلوك الفقير الذي يرضى بالاستكانة والمهانة ويألف الكسل والخمول، ويكتفى في طعامه بأن يبحث في المهملات عن بقايا اللحوم الملقاة، وإذا جاد عليه صديق بأكلة، عد نفسه من الأغنياء، بينما تمجد هذه الأشعار الصعلوك الأبي الذي لا ينال الفقر من قوة شخصيته ومهابتة التي يحسب لها الأعداء ألف حساب مهما كانوا منه قريين أو بعيدين، فهو يملأ النفوس رهبة وفزعاً، فإذا عاش، عاش كريماً، وإذا مات مات حميداً.

وكان السليك من أشد رجال العرب وأشعرهم، وكانت العرب تسميه سليك المقانب حيث كان أعلمهم بمسالك الصحراء ودروبها وأشدهم عدواً على رجله فكانت الخيل لا تدركه.

وكان يعتمد على قوته فيغير وحده على قبائل فينهبها وربما رافقه في غارته صعلوك أو اثنان، وكان للسليك دعاء مشهور يقول فيه: اللهم إنك تهىء ماشئت لما شئت إذا شئت، اللهم إنى ولو كنت ضعيفاً، كنت عبداً، ولو كنت امرأة، كنت أمة، اللهم إنى أعود بك من

الخبيبة، فأما الهيبة فلا هيبة.

اشتد الفقر على السليك فخرج ليلاً على رجله عسى أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه فيأخذ إبله، ولما طال انتظاره وضع رأسه على عضده ونام في الخلاء، فجاء رجل ونام إلى جواره، فقال له السليك: من أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرت فقلت لأخرجن فلا أرجع إلى أهلي حتى استغنى، قال السليك: انطلق معي إذن، فانطلقا معاً فوجدوا رجلاً له مثل فقرهما فانطلقا الثلاثة يبحثون عن ينهبونهم حتى بلغوا وادياً فيه إبل كثيرة، فقال السليك لصاحبيه: كونا قريباً مني حتى أعلم لكما علم الحى أقرب أم بعيد، فإن كانوا قريباً رجعت إليكما، وإن كانوا بعيداً قلت لكما قولاً أو أومىء إليكما به، فأغيرا.

وانطلق حتى أتى الرعاء وأخذ يستدرجهم في القول حتى أخبروه بمكان الحى وعرف أنهم بعيد، فقال للرعاء: ألا أغنيكم؟ فقالوا: بلى، غننا فرفع صوته وغنى:

ياصاحبي ألا لحي بالبوادي سوى عبيد وأم بين أذواد
اتنظران قريباً ريث غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للغادي

فلما سمع صاحبه ذلك أتياه وأخذوا الإبل وذهبوا بها ولم يبلغ صياح العبيد الحى حتى كان السليك وصاحبه في مأمئهم.

والقصص التي تصور شدة السليك وسرعته في العدو كثيرة وقد رآته طلائع جيش بكر بن وائل وكانوا يقصدون قومه فقالوا: إن علم السليك بنا أندرهم، فبعثوا إليه فارسين على جوادين، فلما طاردها ظل يجرى على رجله كأنه ظبي، وأمضيا النهار كله وراءه، ثم قالوا: إذا كان الليل أعياء ثم سقط أو قصر عن العدو فناخذه، فلما أصبح الصباح تبعاه فوجدوا أثره

متباعدا فعلما أنه ما يزال قويا، وخافا على نفسيهما الضياع في الصحراء، فقالا: والله لانتبعه
أبدأ وانصرفا عنه، ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم، فكذبوه لبعده الغاية، فأنشأ يقول:

يكذبني العمران، عمرو بن جندب وعمرو بن سعد والمكذب أكذب
ثكلتكما إن لم أكسن قد رأيتها كراديس يهديها إلى الحى موكب
كراديس فيها الحوفزان وقومه فوارس همام متى يدع يركبوا

وجاء الجيش فأغاروا على القوم فعلموا أن السليك كان صادقا.

وكان السليك إذا شرب الماء ثقل وقلت سرعته، وقد أغار على قوم من بني مالك، فلم
يظفر منهم بفائدة وأرادوا الإمساك به، فقال شيخ منهم: إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوه
حتى يرد الماء فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرت به.

فأمهلوه حتى ورد الماء، فشرب ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم، وقصد أقرب
بيوتهم حتى دخل على امرأة منهم تسمى «فكيهة» فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها
واستلت السيف وقامت دونه فكثر عليها القوم فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت
بإخوتها فجأواها ودفعوا عنه حتى لجأ من القتل، فقال في ذلك:

لعمرو أيبك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح أباه ولم ترفع لإخوتها شنارا
وماعجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

كان السليك يعطى رجلاً من خثعم يسمى عبد الملك بن مويك إتاوة من غنائه على أن
يجيره، فيتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم.

وقد لقي سليك رجلاً من خثعم يقال له مالك بن عمير خارج أرضه ومعه امرأته وتسمى النوار، فأسرهما السليك فقال له الرجل: أنا أفدى نفسي منك، فقال السليك: على ألا تخيس بي ولا تطلع عليّ أحداً من خثعم، فحالفه على ذلك وترك امرأته رهينة عنده ورجع إلى قومه، فأصاب السليك النوار فأحبته وجعلت تقول له إحذر خثعم فإنى أخافهم عليك، فقال:

تهددنى كى أحذر العام خثعما وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم
وما خثعم إلا لثام أرقاة إلى الذل والإسخاف تنمى وتنتمى

فبلغ ذلك الشعر رجلين من خثعم هما شبل بن قلادة وأنس بن مدرك، فقالا: أيقول ذلك فينا ونحن مجيروه؟

فلم يشعر السليك إلا وقد أدركاه فى الخيل والسلاح والرجال فأنشأ يقول:

من مبلغ حرباً أنى مقتول يارب نهب قد حوت عثكول
ورب قرن قد تركت مجدول ورب زوج قد نكحت عطبول
وررب عان قد فككت مكبول ورب واد قد قطعت مشبول

فقال أنس لشبل: إن شئت كفيتك أصحابه واكفى السليك، وإن شئت اكفى أصحابه أكفك السليك.

فقال شبل: بل أكفيك أصحابه.

فشد شبل وأصحابه على أصحاب سليك فقتلوهم، وشد أنس مع رجاله على السليك فقتلوه.

شراء قتلهم شعرهم

الكميت

ولد الكميت بن زيد أيام مقتل الحسين بن علي - رضى الله عنهما - فوضع صغيراً من صدر الفجيجة الكبرى وتنفس من زفرات الملكومين فيها وأرقت مهده الصغير أنات الثكالي من شيعة الحسين بل ومن شيعة بنى هاشم.

طبع الكميت على حب بنى هاشم والتشيع لهم، وهو كشاعر كان عليه أن يعبر عن ذلك الحب ويصوره بأسلوبه، لكن أن تحب هاشمياً في عصر ثقلت عليه يد بنى أمية فهذا جهاد، وأن تجهر بهذا الحب فجهادٌ أعظم، وأن تجهر به شعراً - مع ما للشعر من قوة في التأثير على النفوس وسرعة في الانتشار - فهذا هو الجهاد الأعظم.

ومن خلال ثقافة الكميت كفقيه ومعلم للصبيان، ومن جهة أخرى كرجل متشيع لبنى هاشم، وعلى مذهب الزيدية - وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي وهم أكثر فرق الشيعة اعتدالاً في تشيعهم لعلي وآل بيته - ومن خلال صلته الوثيقة بالفكر المعتزلي عن طريق صاحبه زيد بن علي، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة، من خلال ذلك كله استطاع الكميت أن يكون لنفسه رؤيته الخاصة للأحداث قديمها وحديثها، وأن يكون رأياً حراً لا تؤثر عليه المؤثرات الحكومية «الأموية» استطاع الكميت أن يمهد للشعر أرضاً جديدة تحت سماء التشيع، كما استطاع أن يمهد للشيعة أرضاً جديدة تحت سماء الشعر، يمكنهم في ظله أن يظهروا محبتهم لآل البيت، ويحتجوا لحق أئمتهم في الخلافة، ويبرزوا الجوانب الدينية والإنسانية في شخصية الأئمة، بل يمكنهم من خلاله أن يظهروا حزنهم وتفجعهم على الشهداء من أئمتهم، على الرغم من أن ذلك كان محظوراً وإن لم يكن حظره معلناً.

ولقد سار على درب الكميت شعراء عرفوا بحبهم لآل البيت وخصوهم الولاء وأكثروا القول فيهم، منهم كثير عزة، والسيد الحميري، وأيمن بن خزيم، وأبو الأسود الدؤلي، وهم قلة غير أن واحد منهم كثير على الدولة الأموية وكفيل شطر بيت لأقلهم شهرة أن يغرس

الشوك في مضجع أعتى خلفاء بني أمية فلا يدرك النوم حتى يفتك بقائله.

كتب الكميت مجموعة من القصائد يمدح فيها بني هاشم، ويهجو بني أمية ويوازن بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين، وعرفت هذه المجموعة من القصائد باسم «الهاشميات»، منها قوله:

نفى عن عينك الأرقُ الهجوعا	وهم يمتري ^(١) منها الدموعا
لفقدان الخضارم ^(٢) من قريش	وخير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمن يصدع بالمشاني ^(٣)	وكان له أبو حسن قريعا
حطوطاً ^(٤) من مسيرته ومولى	إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبي على اختبار	بما أعيى الرفوض له المديعا
ويوم الدوح ^(٥) دوح غدِيرخُم ^(٦)	أبان له الولاية أو أطيما
ولكن الرجال تبايموها	فلم أر مثلها خطراً مببيعا
فلم أبلغ بها لعنا ولكن	أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل	إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا	وأقومهم لدى الحدثنان ^(٧) ريعا

(١) يمتري: يحلب

(٢) الخضارم: السادة

(٣) المثاني: القرآن الكريم، والمراد يشق عصا الكفر بالقرآن

(٤) الحطوط: السريع

(٥) الدوح: الشجر، مفردها دوحة

(٦) غدِيرخُم: موضع بين مكة والمدينة

(٧) الحدثنان: الحادثة

تناسوا حقه وبنغوا عليه بلا ترة وكان لهم قريعا

من خلال هذه الأبيات تلمح الكميت وقد استبد به الأرق والههم الذي قرح جفنيه من كثرة بكائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده من آل البيت الكريم، ثم بعد ذلك يأخذ في الاحتجاج لحق على كرم الله وجهه في الخلافة، ويؤيد ذلك الحق بعرض خصال الإمام على فيصفه بأنه يسارع إلى إرضاء خالقه عز وجل، ثم يحتج بأن الرسول أوصى بخلافة على في يوم عُرف بيوم غدیر خم، ثم يعيب على الصحابة موقفهم حين سلبوا عليا حقه في الولاية وتركوا أمر الرسول فصاروا مضيعين للحق^(١).

وفي موضع آخر من الهاشميات يقول الكميت:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا	أرضى بشتم أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا ^(٢)	بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به	يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا
إن الرسول ررسول الله قال لنا	إن الولي على غير ما هجرا
في موقف أوقف الله النبي به	لم يعطه قبله من خلقه بشرا
هو الإمام إمام الحق نعرفه	لا كاللذين استذلانا بما أثمرنا

يتكلم الكميت بحنجرة الشيعة الزيدية، ويحس بأحاسيسهم وينبض قلبهم جميعاً بحب آل البيت عامة وحب على خاصة، وهو في هذه المقطعة يصرح بهذا الحب، ولكنه مع حبه

(١) نلفت نظر القارئ إلى أننا نشرح وجهة نظر الكميت ولانتبهاها

(٢) فدك. قرية بالحجاز

الشديد لعلى يرفض أن يتناول أميري المؤمنين أبا بكر وعمر بالسب أو اللعن، فهو يعتقد بجواز إمامتهما - كما يقرر ذلك مذهب الشيعة الزيدية - مع وجود من يفضلهما وهو الأمام على كرم الله وجهه.

يشير الكميت إلى القرية التي أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم قرية فدك - والتي طالبت بها ابنته السيدة فاطمة بعد وفاته، فأبى أبو بكر عطاءها إياها وكذلك فعل من تبعه من الخلفاء، فالكميت يرى أنه على الرغم من ذلك لا يصح رميهم بالكفر ويفوض الأمر فيهم إلى الله تعالى، ثم يؤكد الكميت على إمامة على ويحتج له بأن الرسول أوصى له بذلك صراحة.

وفي هاشمية أخرى يقول الكميت

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب	ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ
ولم يلهنى دار ولا رسم ^(١) منزل	ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات ^(٢) البارحات عشية	أمرَّ سليم القرن أم مرأعضب ^(٣)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى	وخير بنى حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض ^(٤) الذين بحبهم	إلى الله فيما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإنسى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

(١) رسم: الأثر اللاصق بالأرض من أطلال المنازل

(٢) السانحات ما يمر من الطير ناحية اليمين، وكانت العرب تتفاءل به، والبارحات: ما يمر إلى اليسار وكانت العرب تتشاءم منه

(٣) الأعضب: المكسور القرن

(٤) البيض: جمع أبيض وهو الشريف الحر

خفضت لهم منى جناحى مودة
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء
وأرمى وأرمى بالعمداواة أهلها
ومالى إلا آل أحمد شيعة
بخاتمكم غصبا تجوز أموركم
وجدنا لكم فى آل حاميم^(٢) آية
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت
بحقكم أمست قريش تقودنا
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً
ولكن مواريث بن أمنة الذى
يقولون لم يورث ولولا ترائه
وعك ولخيم والسكون وحمير
وماكنت الأنصار فيها أذلة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
محباً على أنى أذم وأقصب^(١)
وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
ومالى إلا مذهب الحق مذهب
فلم أر غصباً مثله يتغصب
تأولها منا تقى ومعرب
لكم نصب فيها لدى الشك منصب
وبالفلد^(٣) منها والرديفين^(٤) نركب
وماورثتهم ذلك أم ولا أب
سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
به دان شرقى لكم ومغرب
لقد شركت فيه بكيل وأرحب^(٥)
وكندة والحيان: بكر وتغلب
ولاغيباً عنها إذا الناس غيب

(١) أقصب: أعاب وأشتم

(٢) آل حاميم: السور القرآنية المبدوءة بـ «حم» وهى غافر، فصلت، شورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف

(٣) الفلد: الفرد

(٤) الرديف: هو الذى يركب خلف الراكب

(٥) بكيل وأرحب والبيت التالى كله: أسماء قبائل عربية

همُّ شهدوا بدرأ وخبير بعدهما
وهم رثموها غير ظئر وأشبلوا
فإن هي لم تصلح لقوم سواهم
وأيوم حنين والدماء تصيب
عليها بأطراف القنا وتحذبوا
فإن ذوى القربى أحق وأقرب

كأصحاب القضايا والمهتمين بالمشكلات العليا لم يكن الكميت يطرب أو يشتاق كما يشتاق أترابه لجارية بيضاء يلاعبها وتلاعبه، ولم يكن كذلك من الشعراء الذين يرون من الرسوم الدارسة موضوعات تدور حولها حياتهم وبالتالي قصائدهم، ولم يكن كذلك من الشباب اللاهى العابث الذى لا يجد ما يضيع وقته فيه سوى استطلاع الغيب عن طريق العادات الجاهلية الذميمة مثل زجر الطير، ولكنه - وهو الرجل المحب لآل البيت فى دولة عدوهم - لم يكن له هم سوى إرضائهم وتبنى الدفاع عن حقهم المغتصب فى الخلافة، فهم أهل الفضائل والعقول الراجحة، وهم خير الأبناء لخير الأمهات وهى السيدة «فاطمة الزهراء» رضى الله عنها وأرضاها، وهذه براعة استهلال محمد عليها قريحته الشعرية، فهو يشد السامع من أول القصيدة ويجذبه من خلال تجديد لم تعهده القصيدة العربية التى عرف عمودها بالبدا بالوقوف على الأطلال، ثم ذكر الحبيبة النائية، ووصفها بما تيسر من صفات الشرف والرفعة ولا بأس من التعرض لمفاتها فى بيت أو بيتين، ثم وصف الخيل أو الناقة ثم الخلاص من ذلك كله إلى الغرض الأساسى فى القصيدة من مدح أو فخر أو غزل أو رثاء أو هجاء ثم فى ختام القصيدة تكون هناك حكمة أو مجموعة من الحكم يطلقها الشاعر.

الكميت إذن سبق العصر العباسى إلى كسر عمود القصيدة العربية، ألم يطلع علينا بقصائد مختلفة تماما فى بنائها عن المعتاد فى ذلك العصر؟! ولقد كان شعره بما يحويه من إرهابات التجديد موضع إعجاب من كبار شعراء عصره، فهاهو الفرزدق يستمع إليه بإنصات شديد وهو يقول:

طربت وماشوقاً إلى البيت أطربُ

فقال له الفرزدق: فيم نظرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولالعباً منى وذو الشوق يلعبُ

قال الفرزدق: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مـخـضب

فقال الفرزدق: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

فقال الفرزدق: أجل لا تطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب

فقال الفرزدق: ومن هؤلاء؟ ويحك، فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقرب

قال الفرزدق: أرحنى، ويحك، من هؤلاء؟ فقال:

بنى هاشم رهط النبى فإنى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر

من بقى.

لم يكن الفرزدق لينصت ذلك الإنصات ويتلهف على الاستماع ذلك التلهف لشاعر صبي يلقي عليه أولى محاولاته، إلا إذا أدرك الفرزدق أن هناك شيئاً جديداً لم يسمعه من

غيره من الشعراء، ولم يكن ليطلق عليه «أشعر من مضى وأشعر من بقى» على سبيل المجاملة أو التشجيع، فلم تكن الساحة الأدبية وقتئذٍ تعرف تلك المجاملات البلهاء التي نراها اليوم على ألسنة المتناقدين موجهة للمتشاعرين، ولم يكن الفرزدق ليقول ذلك إلا تقديرًا منه - وهو رجل ذو تاريخ شعري طويل وحساسية نقدية نفاذة - لما يقول الكميت من شعر لم تسمع العرب مثله.

بعد هذه المقدمة يتعرض الكميت للأمويين مغتصبى الخلافة من الهاشميين أصحاب الحق فيها، ويقرر أنه اغتصاب لم يُر مثله في تاريخ البشرية فقد أصبح الأمويون يجوزون أمورهم بخاتم الخلافة، وهو خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبنو هاشم أحق به منهم، وقد عبر الكميت عن الأمويين بضمير الغائبين «هم» ولم يصرح باسم أحد منهم، وليس هذا جنباً منه أو احتراساً أو وسيلة للهروب من المساءلة، فالقصيدة كلها صفة على وجه الأمويين، وإنما استخدام الضمير هنا جاء للتعميم، فكأنما المقصود بالذم ليس الأمويين وحدهم وإنما كل من يمكن أن يكون فى مكانهم من اغتصاب الخلافة، بمعنى أى «هم» أو أى قوم كانوا، وبذلك يخرج الكميت نفسه من دائرة العداة الشخصى لبنى أمية، فهو لا يقصدهم كقوم وإنما يقصدهم لموضعهم الذى وضعوا أنفسهم فيه من اغتصاب الخلافة، وكأن القضية قد أصبحت عند الكميت ذات طرفين، طرفها الأول بنو هاشم وطرفها الثانى «هم».

ثم يلجأ الكميت إل كتاب الله عز وجل أويأ إلى ركنه الشديد علّه يجد فى آياته ما يؤازره ويدعمه، فىرى فى بعض سوره بعض آيات تثبت حق أهل البيت فى الخلافة، منها قوله تعالى فى سورة الشورى «ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لأسألکم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور

شكور»^(١)، ثم يتهم بنى أمية بأن لهم غاية فى تأويلها على غير وجهها، ولكن هذا التأويل سوف يتعبد لهم الوصول إليه.

ثم يأسى الكميت لهذه الحالة التى وصلت إليها الدولة الإسلامية، فقد أصبح الأمويون يرثون الخلافة عن آبائهم، فى الوقت الذى رفضوا وراثتها لبنى هاشم من النبى واحتجوا بأن الأنبياء لا يرثون، ويقرر الكميت حججهم هذه بأن النبى لو لم يكن النبى يورث لكانت الخلافة حقاً عاماً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش فضلاً عن بنى أمية، بل كان للأنصار الحظ الأكبر فيها، فهم الذين آووا ونصروا نبى الأمة، بعد أن تخلت عنه بل وحاربتة قريش، وقد شهد الأنصار غزوة بدر وخيبر وحنين ودفنوا دماءهم لنصرة الإسلام، وقد قبلوا الإسلام ورعوه رعاية الأم لأولادها الصغار.

ثم يخلص الكميت إلى أن الخلافة تورث، بدليل وراثته بنى أمية لها عن طريق آبائهم، ثم يرى أنها من حق آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أقرب الأقربين له وأحق الناس بوراثته، ويتج حتماً عن ذلك أن بنى أمية مغتصبوا هذه الخلافة وليس لهم حق فيها.

وفى إحدى الهاشميات يقول الكميت:

بل هوأى الذى أجن وأبدى	لبنى هاشم فروع الأنام
للقرابين من ندى والبعيد	من من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين باب ماأخطأ لنا	س ومرسى قواعد الإسلام

(١) سورة الشورى آية ٢٣

والفيوث الذين إن أمحل (١) النا
راجحى الوزن كاملى العدل فى السير
غالبين هاشميين فى العـ
وهم الآخذون من ثقة الأم
ساسة لا كمن يرى رعية النا
لا كعبد المليك أو كوليـد
رأيه فيهم كراى ذوى الثلة (٤)
جز ذى الصوف وانتقاء لذى الـ
وهم الأوفون بالناس فى الرا
أخذوا القصد واستقاموا عليه
والوصى (١٠) الذى أمال
قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه
الإمام الزكى والفارس المـ
راعيان كان مسجحا فقدنا
س فمأوى حواضن الأيتام
ة طبيـن (٢) بالأمور العظام
م ربوا (٣) من عطية العلام
ر بتقواهم عرى لا انفصام
س سواء أو رعية الأنعام
أو سليمان بعد أو كهشام
فى الثائجات (٥) جنح الظلام
مخة (٦) لغفا ودعدعا (٧) بالبهام (٨)
فة والأحلمون فى الأحلام
حين مالت زوامل (٩) الأثام
به عرش أمة لا انهدام
حكماً لا كغابر الحكام
لم تحت المعجاج غير الكهام
ه وفقد المسيم (١١) هلك السوام

(١) أمحل الناس: أصابهم الجذب (٢) طبيـن: حاذقين (٣) ربوا: زادوا (٤) الثلة: جماعة الغنم
(٥) الثائجات: جمع ثائجة وهى الصائحة من الضأن (٦) ذو المخة: السمين (٧) دعدعا: صوت تنادى به الغنم
(٨) البهام: أولاد الضأن والمغز (٩) الزوامل: جمع زاملة وهى الناقة التى يُحمل عليها المتاع
(١٠) الوصى: يريد علياً بن أبى طالب (١١) المسيم: الراعى الذى يضع علامة على المشية

الكميت فى هذه القصيدة يحاول أن يلفت النظر إلى الجانب الإنسانى للهاشميين بعد أن أصبح كمالهم الدينى أمراً مفروغاً منه، أليسوا آل بيت النبى وهم أهل التقوى والورع، الكميث إذن يريد الوصول بينى هاشم إلى درجة الكمال الإنسانى أو المثالية الإنسانى، ديناً وخلقاً، فيصفهم بالكرم، فهم كمطر السماء الذى ينقذ من أشرفوا على الهلاك وقد أصابهم الجذب، فيكونون ملاذاً للأمهات وقد حملن أيتامهن ولمن لاعائل لهم من العجزة والمحتاجين، فيجدون عندهم الخير الكثير.

ثم يصفهم الكميث بالعدل فى الفصل بين الناس، وبأنهم حاذقون فى مواجهة المشكلات، ويعرفون لكل أمر خطره، ولكل نازلة المنجاة منها، فهم أهل رجاحة العقل والفتنة.

ثم يصفهم بالعلم الربانى المتزايد، وهذا اعتقاد الشيعة فى أن العلم يوهب تماماً كما توهب النبوة، وليس أولى بهذا العلم والفقہ من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الوحي.

ثم يقارن الكميث بين سياسة الهاشميين وسياسة بنى أمية، وفى هذه المقارنة يقرر الكميث عدل الهاشميين، «بنفى الجور والظلم عنهم، بينما يصم بنى أمية بأنهم يملكون ويدخرون، وكان الرعية غنم لهم، يجزون صوفها ويشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، وفى الوقت نفسه لا يرحمون حتى صغارها من قهرهم، وزجرهم، فهم الظلمة الغاشمون، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس، وقد استقاموا على جادة الدين، بينما حاد بنو أمية عنه، وهم مثقلون بالآثام»^(١).

(١) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى لأستاذنا الدكتور صلاح الدين الهادى ص ١١٧

«ولا ينسى الكميت أن يرثى برثائه الشجاعة، والطهر، ونبع الخير، وأن يندد بأعدائه، الذين أعانوا على قتله، بتدبير مؤامرة اغتياله فيرميهم بالجرأة على الدين، لأن في قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية، ويصممهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل، الذى تهلك بهلاكه الرعية»^(١).

بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض هاشميات الكميت، يبقى سؤال هام، هل كان الكميت شاعراً سياسياً أم كان شاعراً دينياً؟

وبتعبير آخر، هل كانت الهاشميات شعراً سياسياً أم شعراً دينياً؟ ربما أجمع بعض النقاد ودارسى أدب ذلك العصر على أنه شعر سياسى، لمطالبة هؤلاء الشعراء بالخلافة لشيعتهم وهى منصب سياسى، لكننا نرى أن ننظر أولاً إلى دوافع المطالبة، أهى سياسية أم دينية؟

بمعنى هل كان الكميت ينتمى للحزب الشيعى ويناصره لأنه حزب من أقوى الأحزاب الموجودة، وربما آل إليه الحكم فى وقت ما، فىكون الكميت مسارعاً إلى النصره والمؤازرة، ويكون له بذلك قدره فى الدولة الجديدة إن قامت؟

لو كان الأمر كذلك فلماذا لم يلجأ الكميت إلى بنى أمية فيمدحهم، ويؤازرهم ويزود عنهم أعداءهم، وهم أصحاب السلطة الحاكمة الموجودة بالقوة والفعال؟

يجيب الكميت نفسه على هذا السؤال حينما قدم له أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ألف دينار وكسوة جائزة على أشعاره فى آل البيت، فقال الكيمت: « والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال)، ولكننى

(١) السابق نفسه ص ١٠٨

أحببتكم للآخرة، وأما الشياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله،
فرده، وقبل الشياب»^(١).

وقوله أيضاً لعبد الله بن الحسن بن علي، وقد أجازه علي شعره في آل البيت بضبيعة
قيمتها أربعة آلاف دينار، وسلمه صكها: «بأبي أنت وأمي، إني كنت أقول الشعر في غيركم
أريد بذلك المال والدنيا، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله، وماكنت لأخذ علي شيء جعلته لله
مالاً ولاثماً»^(٢).

القضية إذن قضية دين، وليست سياسة، فالخلافة خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو
صاحب لواء الدين، وليست خلافة ملك أو سلطان، تؤول إلى من يحسن الوصول إليها عن
أى طريق، أياً كانت هويته.

كذلك لم يكن فصل الدين عن الدولة أمراً وارداً في ذلك الحين، وإنما ذلك الفصل من
مبتدعات عصرنا الحالي، وكان الواجب على النقاد أن يضعوا المصطلحات بدقة، فإن لم
تيسر لهم تلك الدقة، فليسموا القضايا بأسمائها القديمة، ولا حرج في ذلك.

شعر الكميت إذن شعر ديني، وإذا كان منهجه يشبه منهج الشعر السياسي الذي ظهر في
العصور التالية له، فتشابه المناهج لايعنى اتفاق الهوية.

هو شعر ديني جعل السياسة وسيلة من وسائل الأداء، ونسبة الأمور إلى غاياتها لاشك
أفضل من نسبتها إلى وسائلها.

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٩٢ ط. دار الشعب

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٥ نقلاً عن اتجاهات الشعر في العصر الأموي للدكتور صلاح الدين الهادي ص

قُدر للهاشميات أن تكتب، وقدر لها أن تصل إلى قصر بني أمية، ولكن كيف وصلت؟
مما لا شك فيه أن الكميت كان حريصاً على ألا تصل هذه القصائد إلى القصر، فهي لم
تكتب للقصر، وإنما كتبت للعامّة الذين أغرقهم بنو أمية في الظلم والجور.

في وصول الهاشميات إلى قصر بني أمية رواية يرويها أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه
الأغاني، رأينا أن نوردتها بنصها^(١):

ان حكيم بن عياش الأعور الكلبى^(٢) ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تهجوه
ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم، قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد
بن عبد الله القسرى^(٣) محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنيك ما يقول في
بنات عمك وبنات خالك، وأنشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته، فقال قصيدته المذهبة
(ألا حيت عنا يامدينا) فأفحش فيها، وبلغ خالدأ خبرها، فقال: لا أبالي، ما لم يجر لعشيرتى
ذكر، فأنشدوه قوله:

ومن عجب على لعمرو أم	غذتك وغيرها تباً يمينا ^(٤)
تجاوزت المياه بلا دليل	ولا علم تعسف مخطئينا
فإنك والتحول من معد	كهيلة قبلنا والخالينا
تخطت خيرهم حلباً ومسا	إلى المولى المغادر هاربينا
كعنز السوء تنطح عالفياها	وترضيها عصى الذابحينا

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٧٤

(٢) كان شاعراً منقطعاً إلى بني أمية في دمشق

(٣) خالد بن عبد الله القسرى: كان أميراً على العراق

(٤) في البيت تعريض بأم خالد، وكانت نصرانية

فبلغ ذلك خالداً، فقال: فعلها والله، لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فروأهن الهاشميات، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة، وأدباً، فاستقرأهن القرآن، فقرأن، واستنشدهن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق، ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث إليّ برأس الكميت بن زيد، فبعث خالد إلى الكميت في الليل، فأخذه وأودعه السجن، ولما كان من الغد أقرأ من حضر من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وأذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد، وقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت: أنظر ماوردني في صديقك، عز على والله به، ثم قام إبان، وكان عاملاً على واسط، فبعث إلى الكميت فأنذره، وكتب إليه: قد بلغني على ماحدث إليه، وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إليّ حبي - يعني زوجة الكميت، وهي بنت نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإني أرجو ألا يؤبه لك، فأرسل الكميت إلى أبي وضاح حبيب بن بديل، وإلى فتيان من بني عمه، من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر، وشاوره فيه، فسد رأيهم، ثم بعث لي حبي، امرأته فقص عليها القصة، وقال لها: أي ابنة عم، إن الوالي لا يقدم عليك ولا يسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له.

فألْبسته ثيابها وإزارها وخمرته^(١)، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل، فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها فخرج، وعلى باب

(١) خمرته: ألْبسته الخمار

السجن أبو الوضاح، ومعه فتیان من بنى أسد، فلم يؤبه له، ومشى والفتیان بين يديه، إلى سكة شبيب بناحية الكناسة، فمر بمجلس من مجالس بن تميم فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة، وأمر غلامه فاتبعه، فصاح به أبو الوضاح: يا كذا وكذا لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم، وأوماً إليه بنعله فولى العبد مديراً.

وأدخله أبو الوضاح منزله، ولما طال على السجنان الأمر نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة: وراءك لا أم لك! فثبق ثوبه وخرج صارخاً إلى باب خالد، فأخبره الخبر، فأحضر حُبى فقال لها: يا عدوة الله، احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه، لأمثلن بك، ولأصنعن ولأفعلن، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا: ماسبيلك على امرأة منا خدعت، فخافهم فخلى سبيلها.

وسقط غراب على حائط قنعب، فقال الكميت لأبى الوضاح: إنى لمأخوذ، وإن حائطك لساقط، فقال: سبحان الله! هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لا بد من أن تحولنى، فخرج به إلى بنى علقمة، وكانوا يتشيعو، فأقام فيهم، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذى سقط عليه الغراب.

فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إنى أخشى ألا ينفعك جوارى هذا، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام، فقال: كن أنت السفير بين وبينه، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر واعتقاد الصنيعة لمضر، وأخبره الخبر، فأجاره مسلمة بن هشام. وبلغ ذلك هشاماً فدعا به، ثم قال له: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره، فقال: كلا لكنى انتظرت سكو غضبه، قال: أحضرنيه الساعة، فإنه لا جوار لك، فقال مسلمة للكميت: يا أبا المستهل، إن أمير المؤمنين أمرنى بإحضارك، فقال: أتسلمنى يا أبا شاكر، قال: كلا ولكنى

أحتال لك، ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشبابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر، فقال: ما هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر، فقال: يجار من كان إلا الكميت، فإنه لا جوار له، فقيل: إنه الكميت، فقال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم به، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يا أمير المؤمنين، استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة لنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به، فبكى هشام حتى انتحب.

ثم أقبل على الكميت فقال له: ياكميت، أنت القائل:

وإلا فقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهي شرب^(١)

لا والله، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية، فحمد الكميت الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أما بعد فإنني كنت أتهدى في غمرة وأعوم في بحر غواية، أخنى على خطيئتها واستفزني وهلهما، فتحيرت في الضلالة، وتسكعت في الجهالة، مهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالآ، وهذا مقام العائد مبصر الهدى، ورافض العمى، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عني الذلة واعف عن الجرمة، ثم

(١) شرب: ضوامر

قال:

كم قال قائلكم لعاً^(١) لك عند عشرته لعائر
وغفرتهم لذوى الذنوب ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتى لكل ملامة وعشيرتني دون العشائر
أنتم معادن للخلا فة كابرأ من بعد كابر
بالتسعة المتتابعي من خلائفاً وبخير عاشر^(٢)
وإلى القيامة لانزا ل لشباف منك وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين، فقال له: ويلك ياكميت، من زين لك الغواية ودلاًك في العماية؟ قال: الذي أخرج أبانا من الجنة، وأتساه العهد فلم يجد له عزماً، فقال: إيه أنت القائل:

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ويحاطباً في غير حبلك تحطب
فقال: بل أنا القائل:

إلى آل بيت أبي مالك مناخ هو الأرحب الأسهل

(١) لعاً: كلمة يدعى بها للعائر

(٢) التسعة هم معاوية بن أبي سفيان ويزيد الأول ومعاوية الثاني مروان الأول، وعبد الملك بن مروان، والوليد الأول، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد الثاني، والعاشر هو هشام بن عبد الملك

ت من حيث لا ينكر المدخل
ن رهط هم الأنبل الأنبل
ء والشمس مفتاح ماتأمل
على ما بنى الأول الأول
وحيص^(١) من الفتق مارعبلوا^(٢)

تمت بأرحامنا الداخـلا
ببيرة والنضر والمالكـي
ويابنى خزيمة بدر السما
وجدنا قريشاً قريش البطاح
بهم صلح الناس بعد الفساد

قال له: وأنت القائل:

أو سليمان بعد أو كهشام
سيى فلا ذو إل^(٣) ولا ذو ذمام

لا كعبد المليك أو كوليـد
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحد

ويلك يا كميـت أجعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولاذمة، فقال: بل أنا القائل يا أمير
المؤمنين:

ة والأمور إلى المصاير
ب كمهتد بالأمس حائر
ثل والجحاجة الأخايـر
بر من أمية فالأكابر

فالآن صرت إلى أميـ
والآن صرت بهـبا المصيـ
يا ابن العقائل للعقا
من عبيد شمس والأكا

(١) حيصى: خيط

(٢) رعبلوا: مزقوا

(٣) إل: عهد

إن الخلفاءة والإلا
ف برغم ذى حسد وواغر
دلفاً من الشرف التلي
سد إليك بالرفد الموافر
فحللت ممتلج البطا
ح وحل غيرك بالظواهر

فقال له: إيه! فأنت القائل:

فقل لبنى أمية حيث حلوا
وإن خفت المهند والقطيعا^(١)
أجاع الله من أشبعتموه
وأشبع من بجوركهم أضيما
بمضى السياسة هاشمي
يكون حياً لأمته ريعما

فقال: لا تشرب يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو عني قولي الكاذب، قال بماذا؟ قال
بقولي الصادق:

أورثته الحصان أم هشام
حسباً ثاقباً ووجهاً نضيراً
وتماطى به ابن عائشة البد
رفأمسى له رقيباً نظيراً
وكساه أبو الخلائف مروا
ن سنأ المكارم المائورا
لم تجهم له البطاح ولكن
وجدتها له مماراً ودوداً

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر، يقولها لسالم بن عبد الله

(١) القطيع: السوط المنقطع طرفه

بن عمر، وكان إلى جانبه، ثم قال: قد رضيت عنك يا كميت، فقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد في تشريفي ولا تجعل لخالد على إمارة، قال: قد فعلت، فكتب له بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل ذلك».

قدر للكميت أن ينجو هذه المرة، ولعله قال ما قال مدحاً في بني أمية وهو ينظر إلى قوله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»^(١).

ولسنا في حاجة إلى الدفاع عن الكميت وإلباس مدائح له لنبي أمية ثوب الهجاء، فقد استطاع الكميت بحدة ذكائه وسرعة بديهته أن يحيك لها ذلك الثوب، فكفانا بذلك تكلفة والتماسه خلف حجب الظن.

ولننظر معاً إلى قوله:

وإلى القيامة لانزال
لشافع منكم وواتر^(٢)

فهذا البيت وإن كان يرضى هشاماً فإنه في الوقت نفسه يؤلب عليه الأحزاب المعادية المتربصة له، والتي تنتظر موت كل خليفة أموي لتطالب بالخلافة لشيعتها، البيت إذن صرخة يطلقها الكميت من خلف قهقهة هشام طرباً له.

ولننظر إلى السخرية اللاذعة التي قصد إليها الكميت من خلال بيت رقيق فيقول:

(١) سورة النحل آية ١٠

(٢) الضمير المستتر يعود على الخلافة

بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق مارعبلوا

فهل ساد الفساد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاءت بنو أمية لتصلح هذا الفساد، وتجمع شمل الأمة بعد تفرقها وهم أول من فرقها وقطع سبل جمعها؟!!

ومن النقاد المعاصرين للكميت من رأى في قوله:

اليوم صرت إلى أمية والأمر إلى المصائر

أنه إنما أراد: اليوم صرت إلي بني أمية والأمر إلى مصايرها أي بني هاشم^(١). وهذا التأويل من عصر الشاعر يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يفهمون شاعرهم حق الفهم ولا يشكون في نزاهته ويقدرّون محنته التي استنطقته بهذا الشعر.

كما أننا نلاحظ أن الكميت لم يصف دين بني أمية ولم يتعرض له على الإطلاق، فلم يصفهم بالتقوى، والورع، وإنما اكتفى بوصفهم بعلو النسب ورفعة الحسب، ونضارة الوجوه والكرم، وذلك ما كان يمدح به عرب الجاهلية.

ليس غريباً إذن أن يستمر الكميت على تشييعه لآخر لحظة في حياته.

خرجت الجعفرية^(٢) على خالد بن عبد الله القسري، وهو يخطب على المنبر، وهو لا يعلم بهم، فخرجوا في البيانيين^(٣) ينادون: لبيك جعفر! لبيك جعفر! وعرف خالد

(١) أنظر الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٨٥

(٢) الجعفرية: القائلون بإمامة جعفر بعد أبيه محمد بن علي الباقر

(٣) البيانيين: نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي، وهم فرقة من الشيعة

خبرهم، وهو يخطب على المنبر، فدهش فلم يعلم مايقول فزعاً، فقال: أطمونى ماء، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا، فجعل يجيء بهم إلى المسجد، ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط، ويقال للرجل احتضنه، ويضرب حتى يفعل، ثم يحرق، فحرقهم جميعاً.

فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت، وقد مدحه بعد قتله خالد بن عبد الله القسرى، فأنشده قوله فيه:

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضيب^(١)
وما خالد يستطعم الماء فاغراً بعديك والداعى إلى الموت ينعب

وكان الجند قياماً على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فوجؤوه بها وقالوا: أئنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف حتى مات^(٢).

ومات الكميت شاعر آل البيت، لكن هاشمياته بقيت مشهورة فى وجه سيرة بنى أمية، وقد ابتلع التاريخ بنى أمية، بينما بقيت هاشميات الكميت صورة نابضة بحياة أمة نائرة، وبتاريخ ملئ بصراعات، يؤكد دائماً أن البقاء للموقف، البقاء للكلمة.

(١) الرتاج المضيب: أى الباب العظيم المغلق بالضبة

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٨٧

شعراء قتلهم شعرهم

المتنبي

أصبحت الكتابة عن المتنبي من أشد الموضوعات صعوبة بالنسبة للمتخصصين فى دراسة الأدب، فضلاً عن غيرهم، ماذلك إلا لازدحام المكتبة العربية والاستشراقية بأعداد لا حصر لها من الكتب التى تناولت الرجل، بدءاً من عصره شخصياً حتى لحظة كتابة هذه السطور.

والواقع أنه لم يلحظ شاعر عربى أو غير عربى، جاهلى أو إسلامى أو أموى أو عباسى أو عثمانى أو من العصر الحديث، بمثل ما حظى به المتنبي من دراسات شملت حياته بكل دقائقها وشعره بكل حركاته وسكناته.

ودراسة حياته من خلال الكتب التى تصوررها أخباراً وأحداثاً، لا يقدم جديداً إلا اختلاف لغة الكاتب عن غيره من الكتاب، أما دراستها من خلال شعره الذى لا تكاد تنتهى جوانب الإبهار فيه، والذى تتسع مدلولات ألفاظه لتحمل على متنها الكثير من المعانى، والذى تحتفظ الصورة فيه بخروجها على سنة التطور التى تجعل من الحديث قديماً ومن القديم مجهولاً، فتظل هى صورة اليوم التى نرى فى خطوطها عروبة مبدعها الذى لم يكن يكتب لعرب يعيشون عصر الدويلات وإنما كان يكتب للنفس العربية والإحساس العربى والنبض العربى الذى لا يتغير بتغير ملامح الخرائط ولا يهتز مع هزات التاريخ العنيفة.

إن دراسة حياته من خلال شعره فرصة كبرى للمكتبة الإنسانية- الخارجة عن الحدود الإقليمية الجنسية واللغوية - لتحوى إلى جانب شعره تصورات النقاد والأدباء عن حياة الرجل الذى أبدع هذا الشعر الذى لم يستطع أكثر من ألف خريف أن يسقطوا من دوحته الخالدة ورقة واحدة.

ومن خلال قصيدته الميمية التى قالها معاتباً سيف الدولة، سوف نتعرف على بعض

تفاصيل حياته وشخصيته وشعره، يقول:

واحر قلباه ممن قلبه شيم
ومن بجسمى وحالى عنده سقم^(١)
مالي أكتم حباً قد برى جسدى
وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته^(٢)
فليت أنا بقدر الحب نقتسم^(٢)

بدأ المتنبي قصيدته بإطلاق زفرة حارة تدل على شدة امتلاء قلبه بالحب الذي تحول
دفؤه إلى نار مستعرة أمام محبوب بارد القلب لخلوه من الحب وإعراضه عن عاشقه، ثم هو
- ككل العشاق حين يقابل حبه بلا مبالاة - سقيم الجسم من كثرة السهر وطول الليالي
التي يبتيها يفكر في سبب انصراف حبيه عنه، وفي سبيل يسلكه حتى يصل من خلاله إلى
مرضاة هذا الحبيب.

كل بقدر حبه؛ ومن خلال قوله «ليت» التي تفيد التمني ندرك مدى ثقته من حبه لسيف
الدولة ومدى ثقته من ادعاء هؤلاء الناس الحب، لذلك فهو يتمنى هذه القسمة العادلة التي
سوف يفوز فيها بالنصيب الأكبر إن لم يكن بالحب كله.

عرفنا من الأبيات أن المتنبي يمدح رجلاً يسمى «سيف الدولة» فمن هو سيف الدولة؟
وما علاقة الشاعر به؟ (كان سيف الدولة أمير حلب، وله من العمر إذ ذاك خمسة وثلاثون
عاماً، نموذجاً دقيقاً لأمير من «ألف ليلة وليلة»، وسيما، زهواً، تلتقى فيه كل خصائص
الشيخ البدوي، الطيب منها والردىء، طموحاً، متقلب الأطوار، تتأرجح شخصيته بين

(١) واحر قلبه: يتوجع من شدة حرارة قلبه من الحب، شيم: بارد، سقم: مرض

(٢) غرته: طلعت

القسوة والشهامة، مخلصاً، وفياً لرفاقه، شهوانياً، كريماً وأديباً، يزخر بلاطه بالعلماء والشعراء،..... ذلك هو الرجل الذي استسلم له المتنبي عن حب وإعجاب لقياً صدى وقوبلاً بترحاب، وخلال أعوام تسعة رافق الشاعر بلاط سيف الدولة في أنطاكية والرقّة، وميافارقين، وحلب، ورافقه في الحرب والمباهج في الأفراح والأحزان، في الصيد والقنص.

وهناك ازداد شهرة ونما ثراء، وهناك أيضاً أنشد أروع مدائحه التي عرفت بـ «السيفيات» نسبة إلى سيف الدولة^(١)، منها القصيدة التي نحن في رحابها والتي يمدحه فيها بقوله:

قد زرتة وسيوف الهند مغمدة	وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم	وكان أحسن ما في الأحسن الشيم ^(٢)
فوت العدو الذي يممته ظفر	في طيه أسف في طيه نعم ^(٣)
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت	لك المهابة مالا تصنع البهم ^(٤)
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها	أن لا يواريهم أرض ولا علم ^(٥)
أكلما رمت جيشاً فانشى هرباً	تصرفت بك في آثاره الهمم ^(٦)
عليك هزمهم في كل معترك	وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلواً سوى الظفر	تصافحت فيه بيض الهند واللمم ^(٧)

(١) «مع شعراء الأندلس والمتنبي» إميليو غرسيه غومث تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكي ط دار المعارف ص ٢٢

(٢) الشيم: الأخلاق (٣) فوت العدو: تركه، تيممته: قصدته، ظفر: نصر

(٤) البهم: الجيوش (٥) يواريهم: يسترهم ، علم: جبل

(٦) رمت: طلبت ، انشى: انسحب (٧) بيض الهند: سيوف تصنع في الهند، اللمم: شعر خلف الأذن

وفى هذه الأبيات يقدم المتنبي تعليلاً لحبه لسيف الدولة، فقد عرفه فى أوقات السلم حيث كانت السيوف هادئة فى أغمادها، وعرفه فى حالة الحرب حيث كانت السيوف من كثرة إصابتها أجسام جنود الأعداء تبدو وكأنها مصقولة بالدم، فكان فى كلا الحالين أحسن خلق الله وكانت أخلاقه أحسن ما فيه.

ونلاحظ شدة الحساسية البلاغية لدى المتنبي، حيث اختار لوقت السلم قوله «زرت» واختار لوقت الحرب قوله «نظرت»، ذلك لأن أوقات السلم تسمح بالزيارة والمجاملة والمسامرة، بينما فى وقت الحرب لا يرى إلا الكر والفر ولا يسمع إلا هدير السيوف، فلا تسمح تلك الحالة إلا بالنظرة السريعة.

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن واقعة بين سيف الدولة والروم، فر فيها جند الروم ولم يدركهم سيف الدولة، فيحاول المتنبي إقناعه بأن عدم إدراكه لهم يعتبر نصراً، وإن كان يأسف لذلك فإن فى ذلك خير كثير حيث كسب المعركة بفرارهم دون أن يخسر شيئاً من جند أو سلاح، ومهما كانت نتيجة الحرب، فلا يمكن أن يحدث انتصار، أى انتصار، دون خسائر، ومن أجل المزيد من إرضاء الأمير، يعلل له الأمر، فشدة خوف الروم منه ومن قوته وسطوته قد نابت عنه فى المعركة وحقت مهابته ما لا تحققه الجيوش الجرارة، كما أنه لا يصح أن يحزن وقد ألزم نفسه شيئاً لا يلزم القادة أنفسهم به، فعلى القادة نزول المعارك وخوضها بقوة وحزم، فإذا انسحب العدو، فلا عار على القائد، حيث أنه لم يتخاذل ولم يتوان، ثم يتساءل فى تعجب: ألا ترى النصر نصراً إلا إذا صافحت سيوفك رقاب الأعداء حتى آذانهم؟! وهو بذلك يبالغ فى تقدير سيف الدولة لمعنى النصر الذى لا يكون إلا مخضباً بالدماء.

ويبدو أن هذه المعركة لم تكن نتيجتها فى صالح سيف الدولة وأظن أن فرار الروم كان

بعد أن ضربوه الضربة الأولى، وإلا فلماذا يلح المتنبي على تعزية الأمير لو لم يكن الأمر كذلك، إنه يستخدم كل براعته لتعليل عدم إدراك سيف الدولة لجند الروم، ولو كان فرارهم قبل القتال لما احتاج الأمر من المتنبي إلا قوله:

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة مالا تصنع بهم

لكنه أخذ يجمع الممكن والمستحيل من الصور التي أراد من خلالها رفع الروح المعنوية لسيف الدولة وإعادة ثقته بنفسه التي يريد إعدادها للعتاب حيث يقول:

يا عدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه وورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم (١)

بدأ المتنبي بتقرير صفة العدل لسيف الدولة، بل جعله عدل الناس، ثم استثنى من عدله مع جميع الناس معاملته وحده، ثم يفوض له الأمر كله بعد أن جعله حكماً وخصماً وموضوع خصام، فهو كل شيء في هذه القضية، وهو بذلك يستشير عدالته لينتصف لمن احتكم إليه من نفسه حتى يبلغ بذلك أقصى درجات العدالة.

ثم يرتفع بنظرة الأمير ونقاء ذهنه عن أن يخلط بين الأمور فلا يميز الخبيث من الطيب حتى وإن تشابها في الشكل، كما يتشابه الشحم والورم مع اختلافهما في الطبيعة.

(١) ناظره: عينه

وبالحكمة يغلف المتنبي عبارة في منتهى القسوة، يوجهها لسيف الدولة، حيث يقول له:
ماقيمة النظر إذا تساوت الأنوار مع الظلمات عند المرء، وفي هذا تجريح للأمير، ورمى له
بعدم التمييز بين أوضح الأشياء تناقضاً وهي النور والظلمة.

عرفنا أن المتنبي يشكو ظلاماً من سيف الدولة، فما طبيعة هذا الظلم وماظروف وقوعه؟
تتمثل طبيعة هذا الظلم في إعراض سيف الدولة عن المتنبي وميله إلى غيره من الشعراء
الذين لايساوونه فصاحة وشاعرية.

وقد كان المتنبي مقرباً لدى سيف الدولة أثيراً عنده، مما أثار عليه حفيظة غيره
من الشعراء، وكان على رأسهم الشاعر الأمير «أبو فراس الحمداني» بن عم سيف
الدولة، الذي كان يحمل أشد الضغائن للمتنبي، ويحسده على مكائنه من الأمير،
ويحاول النيل من هذه المكانة، هذا بالإضافة إلى استعلاء المتنبي على الشعراء
وذمهم والسخرية منهم ومن شعرهم بشكل جعله هدفهم جميعاً، يسعون به إلى الأمير
ويحاولون الإيقاع بينهما حتى أفلحوا في ذلك، وتغير الأمير من ناحيته، وكثر اعتذار
المتنبي له وكثرت وشاية الواشين، فأراد المتنبي أن يحسم هذا الأمر بهذا العتاب
الصريح الذي بدأه مادحاً، خافض الجناح، ولولا وجود أبي فراس الحمداني وغيره
من الشعراء الحاقدين عليه في المجلس لاستمر يمدح في لين، لكنه أحس بشماتتهم
فيه وعز عليه أن يقطر ماء وجهه أمامهم، فراح يفجر بنفسه مستعلياً على الجميع، بما فيهم
الأمير نفسه، ويفخر بشعره بازاً كل الشعراء، يقول:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا	بأننى خير من تسمى به قدم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى	وأسمعت كلماتى من به صمم

أَنام ملاء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم^(١)

لاشك أن يأس المتنبي من عودة علاقته بسيف الدولة كما كانت، هو الذى دفعه إلى هذا لفخر الذى تجاوز فيه كل الحدود، حتى أنه لم يقم وزناً لوجود الأمير، ولم يستثنه من هذا لجمع الذى ضمه المجلس.

وفخر المتنبي بنفسه لم يكن وليد هذه القصيدة أو هذا الموقف، وإنما اعتاد الرجل أن يفخر بنفسه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يقول فى إحدى قصائده التى كتبها فى صباه:

إن أكن معجباً فمعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تربُ الندى وربُ القوافى وسِمامُ العدى وغيظُ الحسود^(٢)

ويقول:

أى محـل أرتقى أى عظيم أنقى

وكل ماخلق اللـه وهـ وما لم يخلق

محتقرف فى همـتى كشمرة فى مفرقى

ويقول:

وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء

(١) شواردها: يريد أشعاره الدائمة الصيت، جراها: من أجلها

(٢) تـرب الإنسان: من ولد معه، سمام: جمع سم

ويقول:

تغرب لامستعظماً غير نفسه
يقولون لى ماأنت فى كل بلدة
ولا قابلاً إلا الخالقه حكماً
وما بتنى؟ ما بتنى جل أن يسمى

ويقول:

أطع عنك تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

هكذا كان المتنبي فى تقديره لذاته، يراها الأعلى دائماً والأحق بالمجد والشرف ولا يتنازل عن هذه الرؤية تحت أى ظروف كانت.

والغريب أن تكون هذه شخصية شاعر مداح، يصح أن نقول يرتزق بشعره، فالمفترض أن المدح - لاسيما إذا كان الغالب على شعر الشاعر - يروض نفسه على الخنوع والخضوع وإنكار الذات وتفانيها، على الأقل أمام شخصية المدوح، لكن المتنبي ظل يصون نفسه متمردة متعالية لا تقبل إذلالاً.

كما أن فخر المتنبي بشعره لا يقل عن فخره بنفسه، فقد كان يمزج بين شعره وذاته مزجاً لا ينفصل ولا ينحل، ففخره بنفسه هو فخره بالمتنبي الشاعر، وفخره بشعره هو فخره بشعر المتنبي، وديوانه يمتلىء بالأبيات التى تصور شعره بما لم يصور به شعر شاعر.

يقول:

لأتجسّرُ الفصحاءُ تشد هاهنا
بيتاً ولكنى الهزبرُ الباسلُ (١)

(١) الهزبر: الأسد

مانال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

هنا يجعل المتنبي من مدح ممدوحه مدخلاً للفخر بذاته، فالشعراء لا يجروُن على إنشاد الشعر أمامه وذلك لهيبته وجلاله، أما المتنبي فهو الأسد الذي لاتصده هيبه، كما أن شعره فاق شعر أهل الجاهلية، وهو سحر لم تعرفه بابل وهى بلاد السحر.

ويقول:

إن هذا الشعر فى الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيما بيننا فقضى باللفظ لى والحمد لك
فإذا مر بأذنى حاسد صار ممن كان حياً فهلك

ومع فخره بشعره يجعل من نفسه نداءً لسيف الدولة، بل قسيماً له وقد عدل الله بينهما فقضى الفصاحة والشاعرية للمتنبي وقضى بالحمد والشكر لسيف الدولة، كما قدم نفسه عليه فى الترتيب، وهو يحس بأنه شاعر محسود على مجده الشعري ويرى شعره قاتلاً للحساد كمدأ، وهو القائل مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

ويقول:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف سظ كلانا رب المعانى الدقاق

وهو هنا يمدح أبا العشائر بأنه شاعر، ولكنه شاعر مختلف، فهو يتعنى بالمجد فعلاً لا قولاً، ويجعل من نفسه خدنا له ومكافئاً، فكلاهما رب المعانى الرقيقة حيث لا يستطيع أحد مجاراة أبى العشائر فى مجده وفعاله، كما لا يستطيع أحد أن يجارى المتنبي فى مجده

الشعري وقدرته على إبداع الغريب من الشعر.

ويقول:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته
إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره
قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وهكذا يقول المتنبي بيتاً يرفع به ممدوحه ثم يتبعه بيتاً يرفع به نفسه وشعره حتى يقف إلى جوار ممدوحه كتفاً بكتف، وربما جعل كتفه أعلى.

ويقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يعنى مفرداً
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنتي
أنا الطاهر المحكى والآخر الصدى

هنا يجعل المتنبي من الدهر راوية لشعره ومنشداً، وهو يتيه بشعره حتى على ممدوحه، ويجعل الجائزة حقاً له لا منحة، حيث جاء الشعراء يرددون شعره وفي ذلك مجد للممدوح، كما يرى شعره الأصل بينما الآخرون يقلدون شعره كما يقلد الصدى الصوت.

هكذا كان فخر المتنبي بشعره وتقديره له، لذلك لم يكن غريباً أن يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما أسهل أن يبدع هذه الأشعار الرائعة ثم ينام هادياً البال مطمئناً، بينما الناس من نقاد

وشعراء يسهرو الليالى فى تحليلها ودراستها وحفظها أو محاولة إبداع مثلها.

بعد أن أسعف المتنبي ذاته بالفخر بها وشعره بأن ارتفع به فوق كل شعر، كان عليه أن يستعرض قوته كفارس، فقال:

وجاهل مده فى جهله ضحكى	حتى أتته يد فراسة وغم ^(١)
إذا رأيت نيوب الليث بارزة	فلا تظن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتى من هم صاحبها	أدركتها بجواد ظهره حرم ^(٢)
رجلاه فى الركض رجل واليدان يداً	وفعله ماتريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت وموج الموت يلتطم ^(٣)
الخيل والليل والبيداء تعرفنى	والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفرداً	حتى تعجب منى القور والأكم ^(٤)

ويرى المتنبي أن قوة الفارس تبدو أول ماتبدو فى حلمه، وهو أمام الجاهلين رجل حلیم، لاعن ضعف لكن عن رغبة فى قمع الشر فى نفسه، فإذا ما ازداد الجاهل جهلاً أمام ذلك الحلم، فلا بد من المواجهة العنيفة من خلال اليد القوية المفترسة، والفم الفصيح الهجاء الذى يمكنه أن يقوم مقام جيش بأكمله، وهو يضرب مثلاً لتبسمه فى وجه الجاهل عليه بالأسد الذى يكشر عن أنيابه استعداداً للانقضاض على فريسته، فليس ظهور أنيابه على هذه الحالة تبسماً أو ضحكاً.

(١) فراسة: مفترسة

(٢) المهجة: الروح، جواد ظهره حرم: أى آمن لمن يركبه

(٣) مرهف: يقصد سيفه الحاد، الجحفل: الجيش

(٤) الفلوات: جمع فلاة، وهى الأرض المقفرة، القور: المكان العالى من الأرض، الأكم: الجبل الصغير

ويته بجواده القوى الذى يكو ظهره حرماً آمناً لمن يركبه فلا يصيبه مكروه كما لا يصيب
المحتمين بالحرم، فهو يدرك بذلك الجواد روح عدوه الذى كان يسعى لإدراك روحه هو
ويجعلها همه.

ونلاحظ فى هذا البيت «ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم»
أن المتنبي كان شديد التحكم فى المعنى بحيث وضعه - وهو معنى ملتف مكثف - فى بيت
واحد، وهذه قدرة لا تتأتى إلا لشاعر عملاق كالمتنبي.

ولانتفق مع أستاذنا الدكتور «محمد أبو الأنوار» الذى يرى البيت غامضاً ومليئاً بالمعازلة
والغموض، حيث يقول:

«والبيت عندي لا يخلو من غموض ومعازلة والشاعر يريد أن يقول: رب مهجة من هم
صاحبها أن يلحق بى القتل، ولكنى أنا الذى أفتك بهذا العدو وأدركه بجواد من ركه كان
آمناً. كأن ظهره أرض الحرم من لاذبه كان فى مأمنه»^(١).

وهذا ليس شرحاً للبيت، فقد أورد أستاذنا شرح البيت بعد ذلك، ولكنه تبخير للتكثيف
الذى قام به المتنبي فى البيت، أو إعادة كتابة البيت بشكل منشور ليكون أوضح وأيسر
للقارىء.

لكننى أرى أن البيت يخلو من المعازلة والتعقيد والغموض، ومن خلال القراءة الثانية أو
الثالثة على الأكثر - قراءة متأنية، معربة للبيت - يتضح البيت تماماً، فيكون ترتيب البيت فى

(١) فى الشعر العباسى تطوره وقيمه الفنية د. محمد أبو الأنوار ص ٣٥٥ ط. مكتبة الشباب

تصوري كالاتى: «ومهجة أدركتها بجواد ظهره حرم، وكانت مهجتي من هم صاحبها»
وهذا الترتيب هو نفسه ترتيب المتنبي، فنحن لم نزد عليه إلا كلمة (كانت)، ولو كتب
البيت هكذا:

ومهجة - مهجتي من هم صاحبها- أدركتها بجواد ظهره حرم

لخلا تماماً من التعقيد والغموض والمعاظلة التي يشعر بها البعض، ولانفتح البيت من
القراءة الأولى.

ثم اتجه المتنبي إلى ووصف فرسه السريع، الذي تبدو رجلاه من شدة السرعة كأنهما
رجل واحدة وتبدو اليدان كأنهما يدٌ واحدة، وهو شديد الاستجابة لحركات فارسه، فيفعل
ما تريد قدمه وكفه وكأنهما جسد واحد.

وهو بسيفه المرهف يسير بين الجيشين العظيمين، ويظل يضرب والموت يحيط به من كل
جانب كأنه الموج العاتى الذى يطغى على الشط ويكسر الصخور، لكنه لا يبالي بكل ذلك
لشجاعته، فقد عرفته الخيل فارساً شجاعاً مغواراً، وعرفه الليل جوالاً فيه لا يهاب ظلمته
وماتخبيء من شرور للعابرين، وعرفته الصحارى، فقد جابها شرقاً وغرباً وعرف كل شبر
فيها وكل حبة رمل من رمالها، وعرفه السيف قتالاً، والرمح طعاناً، والأوراق والأقلام
شاعراً فصيحاً لا يدانيه شاعر عربى.

وهو بكل هذه السجايا كان خليقاً أن ينفرد فى الصحراء مع الوحوش لا يهابهم، حتى
تعجبت منه مظاهر الطبيعة من مرتفعات ومنخفضات.

لاحظنا أن المتنبي فخر بالحلم والشجاعة والبطش والفروسية والفصاحة، وهذه من
السمات التي يعتز بها العربى لكنه لم يفخر بأهم مفاخرهم وهى الكرم وعلو النسب.

فهل كان المتنبي بخيلاً؟ وهل كان ذا نسب وضيع؟

كان المتنبي بخيلاً فعلاً (وقد سئل في ذلك فقال: إن للبخل سيباً، وذلك أنى أذكر وقد وردت في صباى من الكوفة إلى بغداد، فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل، وخرجت أمشى في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت خمسة بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدرهم التي معى، فتقدمت إليه: بكم هذه الخمس بطايخ؟ فقال: بغير اكتراث- اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن، فقال: ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهنى به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الحان ذاهباً إلى داره فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال: يا مولاي هابطيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى منزلك، فقال الشيخ: ويحك! بكم هذا؟ فقال: بخمسة دراهم، فقال: بل بدرهمين، فباع الخمسة بدرهمين، ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت: يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك، استمت على فى هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً!! فقال: اسكت. هذا يملك مائة ألف دينار... وأنا لا أزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار^(١).

(وهذه الصفة كانت نتيجة حبه للعلا وطماحه للمجد وحرصه على أن ينهض بتبعاته الثقال التي يعد نفسه لها، خاصة وأن مثل المتنبي فى طباعه وخلائقه لا يصادق الضعفاء أو

(١) ديوان المتنبي ج١ ص ٦٥، شرح عبد الرحمن البرقوقي ط. دار الكتاب العربى، بيروت

المتوسطين من الناس، بل شأنه أن يكون في تعامله على اختلاف ألوانه ومشاربه مع الكبار من ذوى الشأن والغلب، ومثل هؤلاء يدفعونه في صراعه معهم ومع الحياة إلى التسلح بالاستغناء، والمال عصب في هذا الدور من أطوار الصمود والكفاح، فلم تكن ظروف شخصيته تجعل منه ذلك الشخص الذى يفرغ للنظر فى شئون المحتاجين وذوى العسرة، أو تجعل مسألة الإحسان والعطاء همأ من همومه، بل ذلك شأن الآخرين الذين ليس هو منهم^(١).

والطريف أنه لما أصاب الثراء فى رحاب سيف الدولة لم يتغير سلوكه فى الإنفاق، على الرغم من أنه ترك كل ما يملك للفقراء، ولكن ماذا ترك لهم؟ يقول:

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجداً

فلم يكن يملك غير السير بالليل والترحل فى الصحراء، فلما أصبح غنياً ترك ذلك للفقراء وألبس خيله نعلاً من الذهب.

لذلك لم يفخر المتنبى بالكرم حتى لا يقابل بالسخرية من الجالسين المتربصين المنتظرين منه هفوة، ولم يفخر المتنبى بنسبه حتى لم يكن رفيع النسب متتيماً لأحد البيوت الكبيرة، وإنما كان من أسرة فقيرة، وكان أبوه يعمل سقاءً بالكوفة، وقد هجاه أحد معاصريه قائلاً:

أى فضل لشاعر يطلب الفضل ل من الناس بكرة وعشياً

عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

(١) فى الشعر العباسى ص ٣٢٠

وهو بذلك يعرض بمهنة أبيه الذي كان يسمى «عيدان السقاء».

ولم يكن لمسألة نسبه هذه تأثير على ذاته المتضخمة ولا على شعره، إنما كان يتجاوز هذه المسألة بنفس الاستعلاء والشموخ فيقول:

وبنفسى فخرت لا بجدودى

لابقومى شرفت بل شرفوا بى

وقال فى رثاء جدته يخاطبها:

لكان أباك الضخم كونك لى أما

ولو لم تكونى بنت أكرم والد

لم يكن المتنبي يفخر بنفسه، بل كان يفخر بانتسابه لنفسه، ويتيه بنفسه على أهله ويرى نفسه مدعاة فخر لهم.

بعد أن افتخر المتنبي بنفسه فارساً واستجمع قواه النفسية، كان عليه أن يعلن قرار رحيله عن سيف الدولة، فقال:

وجداننا كل شىء بعدكم عدم

يامن يعز علينا أن نفارقهم

لو أن أمركم من أمرنا أمم^(١)

ماكان أخلقنا منكم بتكرمة

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

إن كان سرکم ما قال حاسدنا

إن المعارف فى أهل النهى ذمم^(٢)

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة

(١) أمم: قريب

(٢) النهى: العقول، ذمم: عهود

وعلى الرغم من أن هذا الرحيل لا بد منه فإن الشاعر حزين لا يضطراره للرحيل، وعزيز عليه مفارقة صاحبه وأميره وممدوحه الذي أنتجت خصاله الحميدة مع قريحة المتنبي الشعرية، أروع القصائد التي شهدها عالم القصيدة، إذن كل شيء بعد هذا الرحيل عدم في عين أبي الطيب.

ويعاود المتنبي رفته في العتاب، فيقول لسيف الدولة: ما كان أحقنا بتكريمكم لنا ورعاية وجودنا لو كان في قلبكم حب قريب مما في قلبنا. لكنكم استمعتم إلى قول الحساد بل سررتم به، ومع أن ذلك قد جرحنا إلا أننا لانتألم لجرح أرضاكم، ولكن كان يجب عليكم أن ترعوا حق العلاقة القديمة الحميمة، فالمعارف والعلاقات والعهود والمواثيق عند أصحاب العقول، يجب رعايتها والمحافظة عليها وعدم نقضها.

ويتدفق إحساس المتنبي بذاته فيشتد في خطاب سيف الدولة، فيقول:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله مأتئون والكرم
ما أبعده العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم^(١)

هنا يتجاوز حد العتاب إلى مهاجمة سيف الدولة، واتهامه بالتربص له والبحث عن سقطاته وتلمسها له، مع أن الدين ينكر ذلك السلوك، كما تنكره الأخلاق الكريمة، ثم يثب المتنبي للدفاع عن ذاته ضد هذه المحاولات، فيقرر أن شرفه أبعده ما يكون عن العيب والنقصان، فهو كالأنجم العالية التي لاتدركها انحناءات

(١) الثريا: الأنجم المجتمعة، الهرم: الكبر والشيخوخة

الشيخوخة وتجاعيد العجز، وهو يربط بشكل فني بين أن تشيخ النجوم وبين التصاق العيب به.

وقوله: «أنا الثريا وذان الشيب والهرم» يجعلنا نشير إلى إكثار المتنبي من استخدام كلمة «أنا» في شعره، وطبيعي أن يكثر من استخدامها شاعر نرجسي يحس بعملاقة ذاته أمام الدوات الأخرى، ومن أمثلة ذلك قوله:

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركه الله به غريب كصالح فى ثمود

وقوله:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباء حث والنجل بعض من لجله

أنا الذى بين الإله به الأقداء ر والمرء حيثما جمعه

وقوله:

أنا صخرة الوأى إذا مازوحت وإذا نطقت فى أنسى الجوزاء

وقوله:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وقوله:

أنا ابن اللقاء، أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب، أنا ابن الطمان

أنا ابن الفيافى، أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان

وقوله:

كذا أنا يادنيا، إذا شئت فاذهبي ويانفس زیدی فی كرائهها قدماً
(إن الإشارة بالأنا تتجاوز إذن دائرة الفخر التقليدي لتنزل في سياق الرفض الذي يقوم
أساساً على صلابة الذات)^(١)، ذلك فضلاً عن إكثاره من استخدام «ياء المتكلم» و«تاء
الفاعل» وكذلك استتار «أنا» إذا لم يسمح الوزن أو النه
بعد أن عزف المتنبي سيفونية الرفض وجعل العيب والنقصان به
لأيام صفائه مع سيف الدولة، فقال:

ليت الغمام الذي عندي صواعقه	يزيلهن إلى هـ
أرى النوى يقتضيني كل مرحلة	لا تستقل
لئن تركن ضميراً عن ميامنا	ليحدثن
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا	أن لا تنفار

هنا يتمنى الشاعر أن يزيل سيف الدولة الغضب عنه ويوجهه إلى
الوشاة الذين يكافؤهم بتقريبهم واصطفائهم، بينما يبعده ويجفوه.

والآن يصرح الشاعر بترحله عن سيف الدولة، وهو يشعر بداية بصعوبة هذا الرحيل
ومشقته حيث تعجز الإبل السريعة القوية عن قطع هذه الرحلة.

(١) «الرفض ومعانيه في الشعر العربي» يوسف الحناشي الدار العربية للكتاب تونس ص ١١٧
(٢) الديم: المطر الهاديء (٣) النوى: البعد، تقتضيني: تكلفني، الوخادة: الإبل المسرعة، الرسم: التي ترسم
بأخفافها في الأرض
(٤) ضمير: اسم جبل على يمين الراحل من الشام إلى مصر

وأعتقد أن هذه الصعوبة التي يستشعرها أبو الطيب إزاء هذا الرحل أمر غريب عليه، وهو رجل كثير الترحال لا يستقر بأرض حتى يغادرها ولا تقوم بينه وبين أى مكان ألفة أو مودة كالتى تقوم بين الناس والأماكن التى يرتادونها، وفى شعره إشارات إلى هذا المعنى، حيث يقول:

ألفت ترحلى وجعلت أرضى قنودى والغريرى الجلالاً^(١)

فما حاولت فى أرضى مقاماً ولا أزمعت عن أرض زوالاً

على قلق كأن الريح تحنى أوجهها جنوباً وشمالاً

يقول:

غنى عن الأوطان لا يستخفىنى إلى بلد سافرت عنه إياب

أعز مكان فى الدنيا سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب^(٢)

يقول:

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب

إذن لم يكن للمكان فى نفس المتنبى ذلك الأثر الذى يجعل الرحلة عن مكان ما مسألة صعبة وشاقة تضيق بها الناقة القوية والفرس العظيم.

(١) القنود: جمع قند وهو خشب الرحل، الغريرى: الفحل الكريم، الجلالا: العظيم

(٢) السابح: الفرس السريع الجرى (والأبيات بتصريف اوردتها من غير ترتيب)

وفى رأى أن ترحال المتنبي عن سيف الدولة ترحال نفسى وهذا هو سر صعوبته، فبعد تطواف طويل فى شرق البلاد وغربها، وجد المتنبي سيف الدولة، وجد فيه شخصية العربى الذى يتمناه بعد أن أصبح العرب دميّ فى يد الأعاجم، فكان سيف الدولة رمزاً للإباء العربى الذى كان يرجوه المتنبي ويبحث عنه، لذلك لما وجدته أخلص له المدح واتخذة صديقاً وكان معه فى الحروب فارساً والآن هو ينوى الرحيل، والرحيل إلى مصر حيث يحكمها عبد يسمى كافور أسود مثقوب الأذن، فأين هذا العبد من سيف الدولة العربى الأصيل الكريم الشهم الشجاع الوسيم، الذى وجد فيه المتنبي رمزاً للمجد العربى ورفعته المجتمع العربى بعد انتكاسته وانقسامه إلى دويلات ضعيفة هزيلة لا يمكنها أن تصد معتدياً أو تصمد أمام غاز.

إذن كانت المشقة والصعوبة اللتان يستشعرهما المتنبي تمثلان إحساسه الصادق، كما أن الناقة القوية والفرس العظيم الضخم لا يمكنهما أن يقطعا هذه المسافة التى هى فى وجدان أبى الطيب على الرغم من أنها أقصر من المسافة بين قطرة وأخرى من دمه.

وأمام إحساس المتنبي بمدى خسارته بقيامه بهذه الرحلة - الاضطرابية - كان من حقه أن يهدد الأمير ويضع أمامه صورة واضحة للوضع بعد رحيله، فلا بد أن ينتابهم الندم لأنهم فرطوا فى شاعرهم وفارسهم. وهو يرى أنه لم يرحل عنهم بل هم الذين رحلوا عنه، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسترضوه ويعملوا على إبقائه معهم، لكنهم خذلوه واستمعوا إلى قول الوشاه فيه، فبذلك كانوا راضين برحيله حيث كان يمكن منعه ولكنهم تقاعسوا، إذن هم الراحلون وليس هو.

وهذا المعنى يؤكد رأينا فى أن هذا الرحيل رحيل نفسى قبل أى شىء.

ومن المرارة التى تغصن بها نفس المتنبي انطلق لسانه بالحكمة فقال:

وشر ما يكسب الإنسان ما يصم ^(١)	شر البلاد مكان لا صدبة، سه
شهب البزاة سواء فيه والرخم ^(٢)	وشر ما قنصته راحتى قنص
تجوز عندك لأعرب ولا عجم ^(٣)	بأى لفظ تقول الشعر زعنفه
قد ضمن الدر إلا أنه كلم ^(٤)	هذا عتابك إلا أنه مقه

وهذه الحكمة ليست حكمة مجردة، ولكنها وليد شرعى للموقف، ومن خلالها يعلن المتنبي أنه لم يعد له فى هذه البلاد صديق، إذن ذهب سيف الدولة الصديق، وبقي الأمير الممدوح المانع إذا كان عطاؤه على حساب كرامة المتنبي فهو شر العطاء، وشر ما كسبه الشاعر كسب تساوى به مع الأخساء من الشعراء المفتقرين إلى الفصاحة وطلاقة اللسان.

ويكره أبو الطيب أن يتساوى مع هؤلاء تماماً كما يكره أن تتساوى النسور الجارحة القوية الشامخة العالية مع الطيور الحقيرة آكلة الجيف، إن فى هذه المساواة إهانة كبرى للشاعر الذى كان يرى الكون تحت قدميه.

وهذا العتاب الذى وجهه الشاعر لصاحبه، برغم كل مافيه من تجريح وخشونة وإغلاظ أحياناً، إلا أنه صادر عن الحب، وعلى الرغم من أنه كلام، إلا أنه حوى بين جنباته درأ

(١) يصم: يعيب

(٢) قنصته: صادته، شهب البزاة: الصقود ذات الريش الأبيض المختلط بسواد، الرخم: طيور ضعيفة تأكل الجيف

(٣) الزعنفه: اللثيم

(٤) المقه: الحب

خالدة تعيش قوية فى زمن متداع، وتبقى مصقولة جليلة براقه، رغم الأيام الصدئة.

إدعاؤه النبوة

عرضنا من خلال القصيدة بعض الجوانب من حياة وشخصية وشعر المتنبي، وبقي أن نتطرق إلى مسألة هامة، وهى مسألة إدعائه النبوة، وهذه المسألة قد حيرت الكثير من الباحثين على مر العصور، ففي شخصية الرجل وسلوكه وطبيعة العصر الذى عاشه، فى كل ذلك ما يدفع إلى قبول حدوث هذا الإدعاء، وثبوت التهمة عليه. والذى يجعل الحيرة أوسع بحيث تشمل كل من كتب فى هذه المسألة، أن فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره أيضاً ما يدفع إلى رفض هذا الإدعاء.

المسألة إذن مسألة اختلاف فى وجهات نظر الباحثين فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره. والواقع أن المتنبي عاش حياة كريمة بين العرب المسلمين، وتجول فى البلاد بكل عزة وكرامة ولم يبرح أرضاً إلا بإرادته التى تملى عليه مايناسب إحساسه بذاته ومكانته، كما حظى شعره بشهرة عريضة، لم يكن عربى فى عصره لا يعرفه ولا يحفظ شيئاً من شعره، وقد نزل على الولاة والأمراء فمدحهم وأكرموه وأجزلوا له العطاء، وكانوا يحرصون على بقائه معهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

هل كان يمكن أن تكون هذه حياة رجل اتهم بادعاء النبوة؟! هل كان العرب يقبلون بينهم رجلاً يكذب على الله ويرفع نفسه إلى مكانة مساوية لمكانة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ذلك فضلاً عن الترحيب به والعمل على إرضائه واستبقائه، وقد كانت القبائل تلقى بأبنائها فى لظى الحرب من أجل نصرة أى رجل علوى أو حتى يدعى العلوية، وذلك غيرة منهم على آل البيت، فما بالنا بغيرتهم على نبيهم نفسه،

ودينهم الذى أقام لهم هذه الدولة التى يموتون من أجل الحفاظ عليها وإعادتها إلى ماكانت عليه من قوة وسيطرة.

وهل كانوا يحتفون بشعر شاعر تجاوز الزندقة بمراحل أدت إلى إدعاء النبوة؟ ويشرحونه ويحفظونه، بينما أسقط تاريخ الأدب من أشعار الجاهليين مذكروا فيه الأصنام والأوثان، فلم يبق من ذلك إلا النذر اليسير الذى ارتبط بحادثة معينة مع شاعر معين، كالصنم المسمى (بذى الخالص) مثلاً مع امرئ القيس.

إن العرب الذى تركوا أشعاراً كثيرة لوجود أسماء الأصنام فيها، ماكانوا ليحافظوا على شعر رجل ادعى النبوة وحاول محاكاة قرآنهم - كما تنسب ذلك له بعض الروايات - حتى يصل إلى أيدينا محققاً، مشروحاً، حاملاً سيرة صاحبه.

بعيداً عن التطرق إلى تفاصيل هذه المسألة، وذكر كل أو حتى معظم الآراء التى قيلت فيها، نستطيع أن نقول دون مغالاة أن المتنبى لم يدع النبوة. فمن أين إذن لحقه هذا اللقب؟

يجيب على هذا السؤال شيخنا الأستاذ محمود شاعر فيقول:

(وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ واتصل سبيه بيد بن عمار ولزمه وعلا عنده وأصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل، وناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم، وطفقوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوب وأغراهم لذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم وانصرافه عن الهزل الذى يكونون فيه، وظنوا به الكثير فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به، فلما وقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر وتشبيه نفسه بهم، وماهو فيه من التعفف والتورع، أرادوا له

لقباً يندونه به، فلقبوه (المتنبى) يريدون التشبه بالأنبياء، وأخذوا يذكروه بهذا الاسم ويتداولونه بينهم^(١).

ومن الواضح أن شيخنا قد أجهد ذهنه للوصول إلى هذا التحليل، لكنه التحليل الوحيد المقنع حينما نرفض مسألة إدعاء المتنبى النبوة.

مقتله

قتل المتنبى بسبب الهجاء، على الرغم من أن الهجاء لا يمثل ركناً أساسياً في ديوانه، وإنما اقتصر على النتف اليسيرة وبعض المقطعات التي هجا فيها كافور والى مصر وهجا معه شعب مصر الذى جعله والياً وحاكماً.

وكان المتنبى قد قصد مصر ليمدح واليها كافورا، الذى كان عبداً أسود خصياً مثقوب الأذن، لكن المتنبى لم يكن يهتم بهذه الصفات فى أول الأمر، فالرجل يبحث عن ولاية يليها يبدأ بها نواة دولة كبيرة، فلا بأس إذن من مدح كافور العبد، إذا كان ذلك يحقق مأربه، لكن كافور خذله وخيب أمله، فأطلق المتنبى فيه لسانه يهجو، فقال:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافياً	وما أنا عن نفسى ولا عنك راضياً
أمينا وإخلاقاً وغدراً وخسة	وجبناً، أشخصاً لحت لى أم مخازيا؟ ^(٢)
تظن إبتساماتى رجاءً وغبطة	وما أنا إلا ضاحكاً من رجائيا

(١) «المتنبى» للأستاذ محمود شاكر

(٢) المين: الكذب، المخازى: الأفعال القبيحة المخزية

وتعجبني رجلاك فى النعل إننى	رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لاتدرى ألونك أسود	من الجهل أم قد صار أبيض صافياً
ويدكرنى تخييط كعبك شقة	ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
ولولا فضول الناس جئتك مادحاً	بما كنت فى سرى به لك هاجياً
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد	وإن كان بالإنشاد هجوك عالياً
فإن كنت لاخيراً أفدت فإننى	أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة	ليضحك ربات الحداد البواكيا

هنا يخرج المتنبي كل تقززه من ذلك العبد الذى اضطره طموحه إلى مدحه، فيقول له إن نفسه لم تعد تطيق إظهار الرضا عنك والحب لك، كما يظهر لومه وعتابه لنفسه التى قصدت ذلك الرجل الذى لم يعرف حق المتنبي ولم يرع قدره، ثم يصفه بكل صفات الرجل الدنىء من الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخيانة وخسة الأصل والجبن، ثم يتساءل فى تقريرية: أشخص أنت أم مجموعة من الأفعال الدنيئة المخزية، قد تمثلت فى بشر؟! ثم يصون ابتسامته عن أنها ابتسامه رجاء وخضوع وتمنٍ، لكنها ابتسامه الضاحك من رجائه الذى يطلبه عند من لا يكون أهلاً للرجاء، ثم يشير إلى رجليه الغليظتين المشققتين اللتين يظنهما الرائي منتعلتين لشدة سوادهما، ويرى أن الخيوط التى تكون فى الحذاء تشبه الشقوق التى ملأت كعب كافور، وفى هذا إشارة إلى أيام عبوديته التى كان يقضيها حافياً، وهو يرى أن جلده الأسود يشبه ثوبا من الزيت إذا تصبب منه العرق بينما هو عارٍ.

ويقول لولا فضول الناس وتدخلهم فيما لايعنيهم لمدحتك بالهجاء الذى أضمره لك فى

نفسى، فمثلك لا يمكن له أن يفرق بين المدح والهجاء لشدة غبائه، وكثيراً ما كنت تسر
وتظننى أمدحك، بينما أنا أهجوك وأنت لاتفهم الكلام.

وأخيراً يقرر المتنبي أنه لم يستفد خيراً من كنف ذلك العبد، ثم يسخر من نفسه أو يأسى
عليها، فلم تستفد إلا رؤية شفثيه الغليظتين اللتين تشبهان شفثى البعير، فمثله يقصده الناس
من البلاد البعيدة القاصية ليضحك الثكالى بمنظره الغريب فيخرجون من حزنهم وينخرطون
فى الضحك منه.

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

فلا ترَجَّ الخير عند امرىء	مرت يد النخاس فى رأسه ^(١)
وإن عراك الشك فى نفسه	بحاله فانظر إلى جنسه
فقل ما يلؤم فى ثوبه	إلا الذى يلؤم فى غرسه ^(٢)
من وجد المذهب عن قدره	لم يجد المذهب عن نفسه ^(٣)

يقول المتنبي إنه ليس عند عبد أذله النخاس وعبث به يمينا ويساراً وأوسعه ضرباً، ليس
عند هذا العبد الذى عاش تلك الظروف خير، لاسيما إذا أصبح أميراً أو والياً، فيستمر
إحساسه بالنقص ويحاول إذلال الناس.

ثم إنك إذا شككت فيه وفى فعاله، فانظر إلى أصله من العبيد الذين لا يرجى منهم خير

(١) النخاس: تاجر الرقيق

(٢) الغرس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود

(٣) القنس: الأصل

ولاكرم ولا مروءة، فالذى ولدته أمه لثيماً وضيعاً لا بد أن يستمر على لؤمه ووضاعته حتى يفارق الحياة، وإذا صار ذا قدر ونسى أيام عبوديته فإنه لا يستطيع أن ينسى أصله.

وقال يهجوهُ أيضاً وهو راحل عن مصر:

العبيد ليس لحر صالح بأخ	لو أنه في ثياب الحر مولود
لاتشتر العبد إلا والعصا معه	إن العبيد لأجاس مناكيد ^(١)
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن	يسىء بي فيه عبد وهو محمود
ولاتوهمت أن الناس قد فقدوا	وأن مثل أبى البيضاء موجود ^(٢)

يقرر المتنبي أن العبد لا يمكن أن يكون أخاً وقريناً لحر صالح حتى لو كان مولوداً في ثياب الحر، والعبيد لأجاس لا خير فيهم ولا يصلحون إلا بالضرب والإهانة والازدراء، ثم يأسف لأن العمر امتد به حتى الزمن الذى يكون فيه العبد محموداً مشكوراً بينما يسىء للأحرار والأشراف، ولا كان يخطر فى باله حتى على سبيل التوهم أن الناس قد ماتوا جميعاً فلم يبق إلا كافور، ويكنيه بأبى البيضاء استهزاءً به، فمن أين تأتية الطفلة البيضاء وهو بهذا اللون^(٣)، إنه زمن ردىء ذلك الذى ترقى فيه كافور وحده ليحكم الناس.

كان هذا بعضاً مما هجا به المتنبي كافوراً، وقد استطاع أن يرحل عن مصر

(١) مناكيد: جمع منكود وهو الرجل قليل الخير

(٢) أبى البيضاء: يقصد كافوراً وفيه استهزاء به

(٣) نلفت نظر القاريد إلى أننا نشرح شعر المتنبي ولانتنبي رأيه فى مسألة العبودية والألوان. «المؤلف»

دون أن يمسه سوء، وكان مقتله بسبب قصيدة هجا بها رجلاً يسمي «ضبة بن زيد»، قال فيها:

ماأنصف القسوم ضبة	وأمة الطرطبة ^(١)
وماعليك من القت	ل إنما هي ضربة
وماعليك من الغد	ر إنما هي سببة ^(٢)
ياقتلاً كل ضيف	غناه ضيح وعلبة ^(٣)
وخوف كل رفيق	أباتك الليل جنبه
كذا خلقت ومن ذا الـ	لدى يغالب به
ومن يبالي بـ	إذا تمود كسبه
فسل فؤادك يا ضبـ	ة أين خلف عجبه ^(٤)
وإن يخنك فمـ	ل طالما خان صحبه
وكيف ترغب فيه	وقد تبينت رعبه
ماكنت إلا ذبـ	نفتك عنا مذبة ^(٥)
وإن بعدنا قليلاً	حملت رمحاً وحربة

(١) الطرطبة: اسم أم ضبة، وقد حذفنا بعض الأبيات لكثرة الفحش فيها

(٢) السبة: العار

(٣) غناه: كفاه، الضيح: اللبن الممزوج بالماء، العلبة: قذح من الجلد يشرب به الماء

(٤) العجب: الكبر

(٥) المذبة: ما يترد به الذباب

وقلت لبت بكفى
عنان جرداء شطبه^(١)
إن أوحشتك المعالي
فإنها دار غربة
أو أنستك المخازي
فإنها لك نسبة

يتعرض المتنبي لحادثة مقتل أبي ضبة وقد فر وترك أباه، وهو يستخف به ويسأله مستكراً: ما عليك والقتل ليس إلا ضربة ويموت القتل، والغدر يتناقله الناس ويسبونك به ولن ينالك من سبهم أذى. وهو بذلك يشير إلى خسته وعدم اهتمامه بسمعته وسيرته بين الناس.

ثم يصفه بالبخل الشديد لدرجة قتل الضيف الذي يغنيه أقل القليل من لبن مخلوط بالماء موضوع في إناء بسيط من الجلد، فهذا الضيف الذي لن يكلفه إلا القليل المتيسر في كل بيت. يضيق به ضبة حتى يهمل بقتله، ويصفه بالغدر حتى أن أصحابه يخافونه على أنفسهم فلا يطمئنون لومه إلى جوارهم، ويقرر المتنبي أن هذه الصفات صفات موروثه خلق بها ضبة أيستطيع مخلوق أن يغير خلق الله فيه؟ ويسأله مستكراً: من الذي يهتم بالدم إذا كان معتاداً لهذا الدم لا يستطيع أن يفعل شيئاً يغير سيرته بين الناس، ويقول له: سل قلبك أين ترك الكبر والغرور وإدعاء الشجاعة في هذه الواقعة حتى ترك أباه للأعداء يقتلونهم، فإن يخنك هذا القلب ويجبن فلطالما فعلها وخان صاحبه، ويتساءل أيضاً في استنكار: كيف ترغب في هذا القلب الجبان وقد عرفت مدى رعبه عند المواقف الجادة التي تحتاج إلى حسم.

(١) العنان. سير اللجام، الجرداء من الخيل: قصيرة الشعر، الشطبة: الطويلة

وضبة على جنبه هذا لايزيد على كونه ذبابة نفته عن الرجال المذبة التي تنفى الذباب، بيد أنه إذا كان آمناً من أعدائه حمل الرمح والحربة وادعى الشجاعة وبنى أن يكون بكفه عنان فرس عظيم طويل قوي سريع.

وأخيراً يقول له لا تشفق إلى المعالي فإنها بالنسبة لمثلك أرض غريبة لم تطأها قدماك قبلاً، وإذا أنستك الأفعال الدنيئة فلا عجب في ذلك فإنها لك تنتسب.

وفي القصيدة أبيات كثيرة يتعرض فيها المتنبي لأم ضبة ويرميها بأفحش التهم ولم نستطع روايتها لما فيها من الألفاظ الخارجة والصور المكشوفة.

وكان لأم ضبة أخ يسمى «فاتك بن أبي جهل الأسدي» فلما بلغته القصيدة أخذ الغضب منه كل مأخذ وأضمر السوء لأبي الطيب، وكان أبو الطيب قد مر بأبي نصر محمد الحلبي فأطلعته على حقيقة مامر وماينويه فاتك من الشر ونصحته بأن يصحب معه من يستأنس به في الطريق فلم يزد إلا شقة وعناداً، وأبى أن يصحب معه أحداً قائلاً: أنا والجراز في عنقي - يقصد سيفه - فما بي حاجة إلى مؤنس. ثم قال: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت في خفارة غير سيفي، فحذره أبو النصر كثيراً فما كان منه إلا أن أجاب: أبنجو الطير تخوفني، ومن عبيد العصا تخاف علي؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لحمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ماجسر لهم خف ولاظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين، فقال له أبو النصر: قل إن شاء الله. فقال: هي كلمة مقولة لا ترفع مقضياً ولا تستجلب آتياً.

ثم ركب المتنبي وسار فلقى فاتك في الطريق، فأراد المتنبي أن ينجو بنفسه، فقال له غلامه: ألسنت القائل:

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

الخيل والليل والبيداء تعرفنى

فثبت المتنبي حتى قتله فاتك وقتل ابنه محسد وغلामه.

هكذا كانت نهاية الرجل الأسطورة الذى ملأ شعره الدنيا وشغلت نفسه الكريمة الأبية

الطموحة رجال عصره ورجال كل عصر.

وهكذا توقف القلب العربى الذى كان ممتلئاً حباً للعرب وغيره عليهم بينما بقى شعره

العربى حياً نابضاً، فكان خير ماوصل إلينا من عصر الدويلات.



شعراء قتلهم شعرهم

أبو نخيلة

مدح أبو نخيلة الخلفاء، ولم ينقطع لمدح خليفة بعينه، وإنما مدح كل من آلت إليه الخلافة، فهو إذن شاعر المنصب لاشاعر الشخصية.

ويكون أمراً طبيعياً أن نتوقع أن يمدح أبو نخيلة بنى أمية حينما كان الأمر بيدهم كما نتوقع أن يمدح بنى العباس حينما يؤول إليهم الأمر ولا مانع من إرضائهم والإعتذار إليهم بهجاء بنى أمية.

إذن هو يقصد في مدحه كرسى الخلافة لا الجالس عليه، يؤكد ذلك أنه وفد على هشام بن عبد الملك وهو لا يعرف عن أخلاقه شيئاً، ومعرفة أخلاق الخليفة من حلم أو بطش، وسخاء أو شح، وإكبار للشعراء أو إصغار لهم، أمر لازم لكل من يفد عليهم لاسيما الشعراء الذين يستطيعون من خلال ذلك أن يجعلوا شعرهم مناسباً لمقتضى الحال، كان على أبي نخيلة إذن أن يسأل عن أخلاق هذا الخليفة الذى يرجو المثول بين يديه ويطمع فى عطاياه، فقصد رجلاً من المقربين للخليفة وسأله عن ذلك، فأجابه الرجل بأن هشاماً شديد البأس، وإذا مدح وخلط مدحه بطلب حرم الطالب، وطلب من أبى نخيلة أن يخلص المدح ولا يقرنه بطلب، وضرب له موعداً يدخله فيه على الخليفة، فلما حان الموعد دخلاً معاً، فسمع شاعراً ينشده قصيدة يمدحه ويكثر المسألة ويلحف فيها حتى بدا فى وجه هشام الغضب والكراهة، فاستأذن أبو نخيلة وقال:

لما أتتني بغية كالشهد والعسل الممزوج بعد الوقد^(١)

يا بردها لمشتف بالبرد رعت من الجمال مسمغد^(٢)

(١) بغية: مطلب ، الوقد: حر الظمأ

(٢) المسمغد: الطويل القوى

وقلت للعيسى اعترلى وجرى	فهي تخذ أبرح التخذى ^(١)
كم قد تعسفت بها من نجد	ومجرهد بعد مجرهد ^(٢)
إلى أمير المؤمنين المجدى	رب معد وسوى معد ^(٣)
فى وجهه بدر بدا بالسعد	أنت الهمام القرم عند الجد ^(٤)

فلما انتهى من قصيدته نظر إلى وجه هشام فرآه منطلقاً فهمَّ أن يسأله فتذكر قول صاحبه فسكت وخرج، وبعد أيام أتته جائزة هشام، فدخل عليه بعد ذلك ومدحه فمنحه هشام ثياباً من ثيابه الخاصة وصار من المقربين إليه.

والغريب أن أبا نخيلة غير هذه القصيدة وجعلها فى مدح الخليفة أبى العباس السفاح وهو عباسى وذلك بعد أن زال ملك بنى أمية وحل محله ملك بنى العباس.

لما تغيرت الأمور وأصبحت فى يد العباسيين كان على أبى نخيلة أن يطرق بابهم ويمدحهم، فسكوتة عن مدحهم وقد مدح بنى أمية - أو بنى مروان بالتحديد - يعتبر هجاء لهم، وتتحول القضية من مجرد شاعر مداح يقول شعره لكل من يملك القدرة على العطاء إلى قضية ولاء سياسى لبنى أمية، وأبو نخيلة برىء من الثانية كما قلنا.

ولكن كيف يجرؤ أبو نخيلة فى الدخول على أبى العباس السفاح وقد عرف انقطاعه لبنى أمية وكثرة مديحهم؟؟ لقد حلت هذه المشكلة أمام أبى نخيلة بأن صفح أبو العباس

(١) العيسى: الجمال، تخذى: تسرع

(٢) تعسف: تخبط وضل، مجرهد: وعر

(٣) المجدى: المعطى

(٤) القرم: السيد

عمن هم أعظم جرماً منه، فلما دخل عليه (سلم عليه ودعا له وأثنى عليه واستأذنه في الإنشاد، فقال له: ومن أنت؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين أبو نخيلة، فقال: لحياك الله ولا قرب دارك يانضو السوء! ألسنت القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

أمسلم يامن ساد كل خليفة ويافارس الهيجا وياقمر الأرض

والله لولا أنى قد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفك حتى أخضبك بدمك، فقال أبو

نخيلة:

كنا أناساً نرهب الأملاكنا إذا ركبوا الأعناق والأوراكنا

قد ارتجبينا زمننا أباكنا ثم ارتجبينا بعمده أخاكنا

ثم ارتجبينا بعمده إياكنا وكان ماقلت لمن سواكنا

زوراً فقد كفر هذا ذاكنا

فتبسم أبو العباس وقال له: أنت شاعر، وطالب خير، وما زال الناس يمدحون الملوك في دولهم، والتوبة تكفر الخطيئة، والظفر يزيل الحقد، وقد عفونا عنك واستأنفنا الصنيعة لك، وأنت الآن شاعرنا، فاتسم بذلك ليزول عنك ميسم بنى مروان، فقد كفر هذا ذاك كما قلت^(١).

وهكذا نرى أبا نخيلة يدور بمدحه على الخلفاء كدورة الزمن عليهم، وكأن قصائده

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨١١٩

معلقة على كرسى الخلافة يتناولها الجالس عليه بغض النظر عن شخصه وسلوكه. ويبدو أن أبا نخيلة قد أضناه البحث عن عذر يقدمه للعباس عن مدح بني مروان وكان العذر هو خوفه منهم خاصة ومن الملوك عامة، ثم هو يعتبر قوله فيهم خطيئة لا يمحوها إلا مدح بني العباس، ومن مدائحه لبني العباس والتي يهجو فيها بني مروان قوله:

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا	وقام من تبر النبي جوهر
ومن بني العباس نبع أصفر	ينميه فرع طيب وعنصر
أقبل في الناس الهوى المشهر	وصباح في الليل نهار أنور ^(١)
أنا الذي لو قيل إنى أشعر	جلى الضباب الرجز المخبر ^(٢)
لما مضت لي أشهر وأشهر	قلت لنفسي تزدهى فتصبر ^(٣)
لا يستخفك ركب يصدر	لامنجد يمضى ولا مغور ^(٤)
وخالفى الأبياء فهى المخسر	أو يسمع الخليفة المطهر
منى فإنى كل جنح أحضر	وإن بالأباء غيث يهمر ^(٥)
والغيث يرجى والديار تنضر	ماكان إلا أن أناها العسكر
حتى زهاها مسجود ومنبر	لم يبق من مروان عين تنظر ^(٦)
لا غائب ولا أنساس حُضِر	هيهات أودى المقعم المعقر ^(٧)

(١) المشهر: المعروف (٢) أشعر: أقول الشعر، الرجز: بحر من بحور الشعر وعليه يزن أبو نخيلة شعره
(٣) تردهى: تستخف (٤) يصدر: يرجع، المنجد: الذى يسير فى النجد وهو المكان المرتفع، المغور: الذى يسير فى الغور وهو المكان المنخفض
(٥) الجنح: الناحية (٦) مروان: آخر ملوك بني أمية (٧) المقعم: المقتول، المعقر: المتخن جراحاً

وأمتت الأنبار داراً تعمّر وخربت من الشّام أدور^(١)

أين أبو الورد وابن كوثر وأين مروان وأين الأشقر

ويبدو أن سلوك أبي نخيلة الشعري كان منبوذاً لمعرفة الناس بتاريخه مع بني مروان وقد أنكره اسحاق بن مسلم الذي كان جالساً عند الخليفة أبي العباس بعد أن سمع هذه القصيدة وقال: «هؤلاء كلهم في حر أمك أبا نخيلة، فأنكر الخليفة عليه ذلك، فقال: إني والله يا أمير المؤمنين قد سمعت منه فيكم شراً من هذا في مجالس بني مروان، وماله عهد، ولا هو بوفى ولا كريم، فبان ذلك في وجه أبي العباس، وقال له قولاً ضعيفاً: إن التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وهذا شاعر بني هاشم وقام فدخل وانصرف الناس ولم يعط أبا نخيلة شيئاً»^(٢).

أبو نخيلة إذن شخصية شعرية مهتزة ومهيأة لأن يصيبها من جراء ذلك شر عظيم، ذلك لأنه لا يقدر للأمور عواقبها الصحيحة، فهو لا يعرف مقابلاً للقصيدة إلا العطاء، ولا يتوقع رد الفعل الطبيعي حينما يتجاوز شعره حدود المدح وطلب العطاء إلى المناذاة بخلع ولي عهد وإقرار البيعة لغيره، وهو في ذلك يجازف مجازفة عظيمة ويغامر بحياته في مقابل بعض الدراهم وإن كثرت.

حينما علم أبو نخيلة بأن أبا جعفر المنصور يريد تولية المهدي العهد بدلاً من عيسى بن موسى بن أخيه، وجدها أبو نخيلة فرصة للتقرب من أبي جعفر من خلال قصيدة يؤيد به

(١) أدور: جمع دار

(٢) الأغاني ص ٨١٣٩

رأيه ويشيعه بين الناس ويطالب بخلع عيسى بن موسى وبالبيعة للمهدي، فقال:

إلى أمير المؤمنين فاعمدي إلى الذي يندى ولا يندى ندى (١)

سيرى إلى بحر البنحار المزبد إلى الذي إن نفدت لم ينفسد

أو ثمدت أشراعها لم يثمد (٢)

ليس ولي عهدنا بالأسعد عيسى فزحلقها إلى محمد

من عند عيسى معهداً عن معهد حتى تؤدي من يد إلى يد

فقد رضينا بالغلام الأمزد وقد فرغنا غير أن لم نشهد (٣)

وغير أن المعقد لم يؤكد فلو سمعنا قولك أمدد أمدد

كانت لنا كدعة الورد الصدى فناد للبيعة جمعاً نحشد

في يومنا الحاضر هذا أو غد واصنع كما شئت وزده يزدد

ورده منك رداء يرتدد فهو رداء السابق المقلد

وقد أشاع أبو نخيلة هذه القصيدة حتى (رواها الخدم والخاصة وتناشدها العامة، فبلغت المنصور، فدعا به، وعيسى بن موسى جالس عن يمينه فأنشده إياها وأنصت له حتى سمعها عن آخرها.

(١) يندى: وجود

(٢) ثمدت أشراعها: جف ماؤها

(٣) الأمرد: الصغير الذي لم ينبت له لحية

قال أبو نخللة: فجعلت أرى فيه السرور ثم قال لعيسى بن موسى: ولئن كان هذا عن رأيك لقد سررت عمك، وبلغت من مرضاته أقصى ما يبلغه الولد البار السار، فقال عيسى: «لقد ضللت إذا وما أنا من المهتمدين»^(١).^(٢)

هكذا خلع عيسى بن موسى وعقدت البيعة للمهدى بولاية العهد، وكان على عيسى أن ينتقم من ذلك الشاعر الذي تسببت قصيدته في ضياع الخلافة التي عاش عمره ينتظرها. وقد اشتد عيسى في طلب أبي نخللة حتى فر إلى خراسان، فأرسل خلفه مولى له يسمى قطريا ومعه عدد من الرجال فلحقوه في طريقه إلى خراسان، فأخذوه قطري وكتفه وأضجعه وذبحه وسلخ وجهه وألقى جسمه إلى النسر ولم يبرح مكانه حتى لم يبق منه إلا عظامه.

(١) سورة الأنعام آية ٥٦

(٢) الأغاني ص ٨١٤٣

شعراء قتلهم شعرهم

مزاحم بن عمرو

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه»^(١)، خير له من أن يمتلىء شعراً»^(٢)، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن فهم هذا الحديث على أنه ذم للشعر والشعراء، وتحذير للناس من قول الشعر، فهم بجانب للصواب إلى حد بعيد فالنبي صلى الله عليه وسلم كان محباً للشعر يستنشد أصحابه فينشدونه، فيعلق عليه ويستحسنه، وقد كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من حكمة ونظرات دينية صائبة على الرغم من أنه لم يدرك الإسلام، كما كان صلى الله عليه وسلم، يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة وعواطف راقية سامية، فكان كثير الاستماع لشعر الخنساء الذي رثت به أخاها صخرأ، ويستزيدها منه، وليس أدل على إعزاز الرسول للشعر واحتفائه به من وجود حسان بن ثابت المشهور بشاعر الرسول، وقد بنى له الرسول صلى الله عليه وسلم منبراً في المسجد لينشد عليه شعره.

الحديث إذن ينصرف إلى شعر معين، وليس إلى الشعر بعامه، ينصرف إلى الشعر المثير للضغائن والأحقاد، الذي تدور موضوعاته حول النزاعات القبلية أو نهش الأعراض.

ومزاحم بن عمرو رجل كان امتلاء جوفه قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلىء شعراً، فقد تسبب شعره في قتله، ثم قتل امرأة كان يهواها وابنتها وزوجها الذي قتله فقتل ثأراً له.

كان مزاحم يهوى امرأة تسمى «حماء»، وكانت زوجة لعبد الله بن عبيد الله وكنيته ابن الدمينة، وكان مزاحم يأتيها ويحدثها مزدرياً زوجها وقومها، غير عابىء بهم، وغير عابىء

(١) يريه: يفسده

(٢) المجازات النبوة للشريف الرضى ص ٩٠

بسمعة المرأة التي يهواها والتي فضحها في قصيدة مفحشة أدت إلى قتله وقتل المرأة، فقد
اشتهر أمره معها ومنعه زوجها من إتيانها واشتد عليها، فلم يجد مزاحم رداً سوى هذه
القصيدة التي يقول فيها:

يا ابن الدمينة والأخبار يرفعها	وخذ النجائب والمحقوق يخفيها
يا ابن الدمينة إن تغضب لما فعلت	فطال خزيك أو تغضب مواليها
أو تبفضوني فكم من طعنة نفذت	يفدو خلال اختلاج الجوف غاذيها ^(١)
جاهدت فيها لكم.. إني لكم أبداً	أبغى معايكم عمداً فآتيها
فذاك عندي لكم حتى تغيبني	غبراء مظلمة هارٍ نواحيها
أغشى نساء بني تيم إذا هجعت	عنى العميون ولا أبغى مقاريها ^(٢)
كم كاعب من بني تيم قعدت لها	وعانسي حين ذاق النوم حاميها
كقعدة الأعسر العلفوف منتجياً	مُثينة من متين النبيل ينجيها ^(٣)
وشهقة تعترها عند لذتها	وقول ركبتها قض حين تشيها ^(٤)
علامة كية ما بين عانتها	وبين سبتها لاشل كاويها ^(٥)
وتعدل الأير إن زاغت فتبعثه	حين يقيم برفق صدره فيها

(١) يغدو: يسيل دماً
(٢) مقاريها: المقارى جمع مقراة وهى القصعة يقرى فيها الضيف
(٣) الأعسر: الذى يعمل بيساره، العلفوف: الضخم، منتجياً: أى جالس على مكان عالٍ من الأرض، المثينة:
تصغير متن وهو الوتر، ينجيها: يشدها
(٤) قض: صوت يحاكي صوت ركبتها حين تشيها
(٥) سبتها: دبرها

بين الصقوقين في مستهدف ومد	ذى حرة ذاق طعم الموت صاليها ^(١)
ماذا ترى ابن عبيد الله في امرأة	ليست بمحصنة فدرأ أجارها
أيام أنت طريد لاتقاربها	وصادف القوس في الغرات بارها
نرى عجوز بنى تيمم ملفعة	شمطاً عوارضها ريداً دواهيها ^(٢)
إذ تجعل الدفتس الورهاء عذرتها	قشارة من أديم ثم تغريها ^(٣)
حتى يظل هدان القوم بحسبها	بكرأ وقبل هوى في الدار هاويها ^(٤)

هذه هي القصيدة التي ملأ بها مزاحم الدنيا، وهي قصيدة لا يكتبها عاشق في أى حال، وإنما الذي يقبل على كتابة قصيدة كهذه، لا يكون إلا رجلاً زنديقاً أهوج غير بصير بالأمور، ولا يضعها في مواضعها الصحيحة، لقد جعل من الشعر وهو فن الذوق والجمال والتعبير عن المشاعر الإنسانية الراقية، جعل منه وسيلة رخيصة لتصوير سلوكه المخل تجاه امرأة ساقطة.

(لما بلغ ابن الدمينه شعر مزاحم أتى امرأته، فقال لها: لقد قال فيك هذا الرجل ما قال، وقد بلغك، قالت: والله ما رأى ذلك منى قط، قال: فمن له العلامات؟، قالت: وصفهن له النساء، قال: هيهات والله أن يكون ذلك كذلك، ثم أمسك مدة، وصبر حتى ظن أن مزاحما قد نسى القصة، ثم أعاد عليها القول، وأعادت الحلف أن ذلك وصفه له النساء، فقال لها: والله لئن لم تمكنيني منه لأقتلنك، فعلمت أنه سيفعل ذلك، فبعثت إليه وواعده ليلاً، وقعد

(١) الصقوق: الصخرة الملساء المرتفعة، الومد: الشديد الحرارة، الحرة: الحر

(٢) عوارضها: جانباً وجهها

(٣) الدفتس: المرأة الرعناء، الورهاء: الحمقاء، تغريها: تلصقها

(٤) الهدان: الأحمق

له ابن الدمينة وصباح له، فجاءها للموعد، فجعل يكلمها وهي مكانها، فلم تكلمه، فقال لها: يا حماء ما هذا الجفاء الليلة؟ فقال له ابن الدمينة بصوت ضعيف: ادخل، فدخل، فأهوى بيده ليضعها عليها، فوضعها على ابن الدمينة، فوثب عليه هو وصاحبه وقد جعل له حصى في ثوب، فضرب بها كبده حتى قتله، وأخرجه فطرحة ميتاً^(١).

إن موقف ابن الدمينة يؤكد صحة العلامات التي وردت في القصيدة، وهي علامات لاتعرفها المرأة في المرأة، ولكن يعرفها الرجل في وضع خاص، لا يكون إلا بين رجل وامرأة، فحماء إذن امرأة ساقطة، أما موقف ابن الدمينة فلا يخلو من سلبية ومن جن يدلان على قصور في تقدير قيمة العرض والشرف، فلا نتخيل أن رجلاً عربياً يسمع شعراً كهذا في امرأته فلا يكون منه إلا أن يستجوبها ثم يصبر مدة حتى ينسى غريمه القصة، إن الفطرة السليمة تبادر بهذا السؤال: كيف كان حاله خلال هذه المدة التي صبرها؟ وما كانت حاجته إليها؟ ألم يكن الأجدد به أن يخرج على مزاحم شاهراً سيف، فيقتله ويشأر لعرضه المنتهك وكرامته الملوثة؟، إن الطريق التي اختارها لقتل غريمه لاتكون إلا من سارق أو قاطع طريق، أما الثأر للعرض فلا يكون إلا كما قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبيه الدم

وأى ضاحب هذا الذي اصطفاه لمساعدته في مهمته العظمى؟، لا يمكن أن نتصور أن هذا الصاحب كان موجوداً بالصدفة، وإنما استدعاه ابن الدمينة ليكون محمساً ومشجعاً

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٧٣ وما بعدها

ومعينا إذا لزم الأمر، وقد لزم الأمر فعلاً، فلم يقم ابن الدمينة وحده بقتل مزاحم، وإنما وثب عليه هو وصاحبه.

ولعل ابن الدمينة قد أدرك حرج موقفه، وأدرك أن العرب لائموه لامحالة فقد استتر فيما لا يصح الاستتار فيه، واستخفى حيث لا يجب الاستخفاء، لذلك نراه يحاول إسعاف سمعته بقصيدة يهجو فيها سلول - قبيلة مزاحم - ويعرض بنسائهم، يقول ابن الدمينة:

قالوا هجتك سلول اللؤم مخفية	فاليوم أهجو سلولاً لأخافها
قالوا هجاك سلولى فقلت لهم	قد أنصف الصخرة الصماء راميتها
رجالهم شر من يمشى ونسوتهم	شر البرية واست ذل حاميتها
يحككن بالصخر استاها بها نقب	كما يحك نقاب الجرب طاليها ^(١)

وقال أيضاً واصفاً دخول مزاحم عليه:

لك الخير إن واعدت حماء فالقها	نهاراً ولاندلج إذا الليل أظلمنا
فإنك لاتدرى أبيضاء طفلة	تعانق أم ليشاً من القوم قشعما ^(٢)
فلما سرى عن ساعدى ولحيتى	وأدرك أنى لست حماء جمجما ^(٣)

وحان دور حماء، وقد وضع ابن الدمينة على وجهها وسادة من قطيفة وجلس عليها حتى قتلها، فلما ماتت قال:

(١) النقب: الجرب

(٢) القشع: المعجوز

(٣) جمجم الرجل: أى لم يستطع الكلام

إذا قعدت على عرين جاريرة فوق القطيفة فادعوا لي بحفارة

وبينما هو في حالة هستيرية جمعت بين ألم الخيانة ولذة الانتقام فإذا بطفلة له من حماء تبكى، فضرب بها الأرض فقتلها ثم قال: لاتخذن من كلب سوء جرواً.

ولم يكن للأمر أن ينتهى بعد كل هذا، فالقبيلتان - سلول وخثعم - قريبتا العهد بالجاهلية، ولا يمكن لإحدهما السكوت على قاتل مادام حياً، ومادام ابن الدمينة حياً فلا بد لسلول من قتله.

كانت والدة مزاحم من خثعم - قوم ابن الدمينة - ولكن المقتول ابنها ولا بد من الثأر له أيا كان قاتله، ولا أظن أن العصبية القبلية كانت تتراجع أو تضعف إلا في موقف كهذا، وكانت المرأة شاعرة، فقال تراثي ابنها وتحرض مصعباً وجناحاً أخويه:

بأهلى ومالى بل بجل عشيرتى	قتيل بنى تيم بغير سلاح (١)
فهلا قتلتم بالسلاح ابن اختكم	فتظهر فيه للشهور جراح
فلا تطمعوا فى الصلح مادمت حية	ومادام حياً مصعب وجناح
ألم تعلموا أن الدوائر بيننا	تدور وأن الطالبين شحاح

وأكثرت أم مزاحم من تحريض مصعب على ابن الدمينة، وقالت له: (اقتل ابن الدمينة، فإنه قتل أخاك وهجا قومك، وذم أختك، وقد كنت أعذرک قبل الآن لأنك كنت صغيراً وقد

(١) فى البيت عيب من عيوب القافية يسمى «الإقواء» وهو اختلاف حركة الحرف الأخير فى البيت عن بقية أبيات القصيدة

كبرت الآن، فلما أكثر عليه خرج من عندها، وبصر بابن الدمينة واقفاً ينشد الناس، فغدا إلى جزار فأخذ شفرته وعدا على ابن الدمينة فجرحه جراحتين، فقيل: إنه مات لوقته، وقيل: بل سلم تلك ومربه مصعب بعد ذلك وهو في سوق العبلاء ينشد، فعلاه بسيفه حتى قتله^(١).

ألم يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير من أن يمتلىء شعراً».

(١) الأغاني ص ٦٣٧٩

شعراء قتلهم شعرهم

طرفة بن العبد

فى الجزيرة العربية كان الشعر طبيعة فى الناس إبداعاً وفهماً وتذوقاً وحفظاً ورواية، ويندر أن يوجد عربى واحد فى هذا العصر لم يكن له شعر، قليل أو كثير، ردىء أو جيد.

ويدخل هذا الكلام مجال التصديق حينما نشبه الشعر فى الجاهلية وفى الجزيرة العربية بالمرح والفكاهة وخفة الظل فى مصر، فأهل مصر يتميزون بقدرتهم على ابتكار الفكاهة وخلق الأجواء المرحية، وهم فى ذلك - لاشك - يتفاوتون، لكن تجمعهم هذه القدرة.

ليس غريباً إذن أن يطلع علينا تاريخ الأدب الجاهلى بشاعر شاب يقتحم علينا العقد الأخير من القرن العشرين، بقصيدة كتبت بماء الذهب فى نسيج من صنع أقباط مصر وعلقت بأستار الكعبة، فكانت واحدة من المعلقات التى تعتبر أنفس ما أبدعه العقل فى تلك الفترة التى سبقت ظهور الإسلام.

هذا الشاعر يسمى «عمرو بن العبد» و«طرفه» لقبه، وعلى الرغم من حداثة سنه - فقد قتل وهو فى السادسة والعشرين - إلا أنه استطاع أن يشمخ بقامته أمام كبار شعراء عصره فتفوق عليهم بحكمة كانت وليدة ظروفه الخاصة التى ملأته مرارة وأسى، فقد مات أبوه وتركه غلاماً صغيراً، وأكل أعمامه ميراثه عن أبيه، فنشأ فقيراً مع حبه الشديد للإنفاق على المتع والملذات حتى ضاع ماله فاضطر إلى أن تمتد يده لمال أقاربه فنبذوه وطردهوه.

ولو لم يحمل التاريخ لنا وصفه بالفقر لعرفنا ذلك من شعره، فله شعر كثير يذم فيه الفقر ويصف حال الفقير، وقد تخلى الناس عنه وضاعت به الدنيا وأصبح يتخبط فى أمور حياته،

وقد نفر منه أصدقاؤه فإن غاب عنهم لم يسألوا عنه ولم يشفقوا عليه، وإن أب لم يفرحوا
برجوعه أو يحفلوا به، يقول:

إذا قل مال المرء قل بهاؤه	وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً	أقدامه خير لسه أم وراؤه
ولم يمشى في وجه من الأرض واسع	من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه
فإن غاب لم يشفق عليه صديقه	وإن أب لم يفرح به أصفياؤه
وإن مات لم يفقد ولي ذهابه	وإن عاش لم يسرر صديقاً لقاؤه
إذا تم عقل المرء تمت أموره	وتمت أياديه وطباب ثناؤه
وإن لم يكن عقل تبين نقصه	وإن كان مفضلاً كثيراً عطاؤه
إذا قل مال المرء قل صديقه	ولم يجل في قلب الخليل إخاؤه (١)
إذا قل مال المرء لم يرض عقله	بنوه ولم يغضب له أولياؤه
وأصبح مردوداً عليه كلامه	وإن كان منطيقاً قليلاً خطاؤه (٢)

هذه الأبيات بما تحتوي عليه من مرارة وأسى لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل فقير، أراه
الفقر ضيق الأرض والسماء وخيانة الصديق وعدم مبالاة الأحباب بذهابه أو رجوعه، حتى

(١) يجل: يظهر

(٢) منطيقاً: بليغاً

أبناؤه ربما لا يرضون به أباً وأقرباؤه لا يغضبون لمكروه أصابه، وأصبح كلامه مردوداً غير مسموع على الرغم من بلاغته وفطنة قائله.

ويبدو أن الفقر كان الهم الأول الذي يعاينه طرفة، فكان يتمنى أن يكون واحداً من الأغنياء الذين يتمتعون بالمال والولد، يقول:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد^(١)

فأصبحت ذا مالٍ كثير وعادني بنون كرام سادة لمسود^(٢)

(قال أبو عبيدة: فقال عمرو بن مرثد لما سمع قول طرفة: ابعثوا إلى طرفة فليأتني، فأتاه فقال له: أما الولد فالله يعطيكه، وأما المال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالاً، ثم أمر بنيه وهم سبعة أن يعطوه عشراً عشراً من الأبل، حتى أعطاه بنو عمرو سبعين بعيراً، ثم قال لثلاثة من بني أبنائه أعطوه عشراً عشراً فأعطوه ثلاثين، فبقي الأبناء يفخر أبناؤهم الذين أعطوا طرفه على سائر الأبناء الذين لم يعطوه، يقولون: جعلنا جدنا مثل بنيه)^(٣).

ومن شعر طرفة نلاحظ علاقته المتوترة بابن عمه «مالك» الذي كان كبير القوم، والذي كان دائم اللوم على طرفة وسلوكه، بينما يسعى لاسترضائه، حتى يئس منه وعده من الأموات.

(١) قيس بن خالد وعمرو بن مرثد رجلان غنيان من قوم طرفة

(٢) عادني: أتاني

(٣) ديوان طرفة بن العبد تحقيق يوسف الأعلام الشنتمري ص ٣٧

يقول طرفة:

فمالي أراني وابن عمي مالكا
يلوم وما أدري على ما يلومني
وأياسني من كل خير طلبته
فلو كان مولاي امرا هو غيره
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
متى أدن منه ينا عني وييمد
كما لامني في الحى قرط بن أعبد^(١)
كأنا وضعنا على رمس ملحد^(٢)
لفرج كربي أو لأنظرني غدي
على الشكر والتسأل أو أنا مفتد
على المرء من وقع الحسام المهند^(٣)

هكذا كان طرفة كثيراً ما يحاول التقرب إلى ابن عمه الذي كان دائماً يقابل اقترابه بالابتعاد، ويبدو أن لوم طرفة لم يكن مقصورا على ابن عمه مالك، وإنما كان لائمه كثيرين منهم قرط بن أعبد الذي ذكره في قصيده.

وبعد كل محاولات التقرب والمصالحة بين طرفة ومالك، ييأس طرفة ويترك ابن عمه تركاً نهائياً لارجوع فيه، وكأنه قد مات ودفن، ثم يقدم تعليلاً لهذا الاعتقاد، فلو كان ابن عمه رجلاً غير مالك لفرج كربه وأدى عنه دينه أو على الأقل أنظره إلى وقت قريب يكون فيه قادراً على أداء الدين، لكنه شدد عليه الخناق حتى اضطره إلى مدح الناس وشكرهم وسؤالهم العطايا، ثم يقرر حقيقة تشع مرارة وأسى فظلم ذوى القربى أشد حرقة وأوقع المأ

(١) قرط بن أعبد: رجل من حى طرفة

(٢) رمس ملحد: يعنى القبر

(٣) مضاضة: حرقة، الحسام المهند: السيف المصنوع فى الهند

من السيف الحاد البتار، حيث لا يتوقع الإنسان هذا الظلم فلا يتوقى منه، كما لا يكون جاداً في الانتصار لنفسه، فإذا جد وانتصر فإنه لا يكون سعيداً بهذا الانتصار الذي يقع على أقربائه الذين يحبهم ويتمنى لو بادلوه حباً بحب.

الشعر إذن كان الناي الذي ينفث فيه طرفه زفرات الأسي التي تتوهج في صدره، فتخرج لحوناً مطربة عذبة قوية التأثير.

وكثيراً ما كان شعره يشغله عن رعى إبله مع أخيه معبد الذي كان يلومه على ترك إبله وماله إلى الشعر، وكان يقول له: لم لاتسرح في إبلك كما كنت تفعل، أترى أن شعرك يردّها إن أخذت؟ فقال طرفة: فإنى لأخرج فيها أبدأ حتى تعلم أن شعري يردّها. فتركها فأخذها ناس من مضر فرحل طرفة عن اليمامة وادعى جوار عمرو بن هند ملك الحيرة.

وقد وفد على عمرو بن هند مع خاله الملتمس، (فنادمهما الملك وأكرمهما وبقيا عنده زماناً، ويقولون: إن طرفة كان غلاماً معجباً، تائهاً، فبينما كان يشرب يوماً بين يدي الملك إذ أشرفت عليه أخته فرآها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر، فنظر إليه عمرو نظرة كادت تقتلعه من مجلسه، وكان عمرو لا يتسم ولا يضحك، وكانت العرب تسميه «مضرط الحجارة» لشدته، وكانوا يهابونه هيبة شديدة، فقال الملتمس لطرفة حين قاموا: «يا طرفة إنى أخاف عليك من نظرته إليك»، فلم يكثر بكلامه ثم جعلهما عمرو بن هند من صحابة أخيه قابوس، وكان يرشحه للملك، وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شاباً يعجبه الزهو، وكان يركب يوماً في الصيد، فيركض يتصيد، وهما معه يركضان، حتى يرجعا عشية ولقد لعبا. فيكون قابوس من الغد للشراب، فيقفان في باب سراقه إلى العشى، وكان قابوس

يوماً على الشراب، فوقفا ببابه النهار كله، ولم يصلإ إليه، فضجر طرفه وهجا عمراً
وأخاه^(١).

لكن الهجاء لم يصل إلى أسمع عمرو بن هند إلا عن طريق رجل يسمى «عبد عمرو
بن بشر» الذي هجاه طرفه أيضاً، فاشتد حنقه عليه ووشى به عند عمرو بن هند، وكان مما
قاله في هجاء عبد عمرو قوله:

ولاخير فيه غيرر أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما^(٢)

كأن السلاح فوق شعبة بانه ترى نفخاً ورد الأسرة أسحما^(٣)

وطرفة في هذين البيتين ينزع كل الفضائل عن عبد عمرو ولايبقى له إلا غناه ووصفه
بالصفات التي يتغزل بها في النساء، فله خصر ضامر إذا قام تشنى كأنه شجرة البان الرخوة
اللينة الناعمة، والسلاح الذي يحمله يكاد يثنيه، وترى له بروزات في جنبات جسمه وهو
في تشنى لحمه يكون مثيراً.

وكان عبد عمرو بن بشر مع عمرو بن هند في رحلة صيد، وقد جلسوا ليأكلوا صيدهم،
وجلس عبد عمرو يقدم الشواء لعمرو فأبصر خصره من تحت القميص الضيق، فقال له
عمرو بن هند: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفه حسن كشحك، ثم تمثل حتى قال:

ولاخير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما

(١) ديوان طرفه تحقيق الأستاذ على الجندي نقلاً عن نصوص من العصر الجاهلي للدكتور جودة أمين ط. الفجر
الجديد

(٢) الكشح: الخصر، الأهضم: الضامر

(٣) البانة: واحدة شجر البان اللين، الأسحم: الأسود

فغضب عبد عمرو مما قاله عمرو بن هند وأنف، فقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا، قال عمرو وما الذي قال؟ فندم عبد عمرو على الذي سبق منه، وأبى أن يسمعه، فقال عمرو: أسمعنيه وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التي هجاه فيها^(١). ومنها قوله:

ليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قببنا تخور^(٢)
من الزمرات أسبل قادمها وضرتها مركنة درور^(٣)
يشاركنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فماتنور^(٤)
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير^(٥)

في هذه الأبيات يرى طرفة عمرو بن هند ملكاً لا يصلح للملك وخير منه نعجة تخور وإن كانت قليلة الصوف فرمما كان لبنا كثيراً يكفي رضيعها وحالبها، وهي لا تنفر من الكباش فقد اعتادت أن يقع عليها الذكور، ثم يذكر قابوساً أخا عمرو فيصف ملكه بالحمق والبله.

(فسكت عمرو بن هند على ذلك وقر في نفسه، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه، فأضرب عنه، ثم لم يزل يطلب غرته والاستمکان منه حتى أمن طرفه ولم يخفه على نفسه وظن أنه قد رضى عنه، فقدم هو والمتمس على عمرو بن هند، وكان المتمس قد هجا عمراً متعرضاً لفضله ومعروفه، فكتب لهما إلى عامله على البحرين

(٢) الرغوئ: النعجة المرضع

(١) المصدر السابق ص ٨٦

(٣) الزمرات: القليلات الصوف، الضرة: لحم الضرع، مركنة: لها أركان وجوانب، الدرور: كثيرة در اللبن.

(٤) رخلان: مفردا رخل وهي الأنثى من أولاد الضأن، تنور: تنفر

(٥) قابوس بن هند: أخو عمرو بن هند، نوك: حمق

وهجر، وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما.

فخرجا فلما هبطا النحو قال الملتمس: يا طرفة إنك غلام حديث السن والملك من قد عرفت حقه وغدره، وكلانا قد هجاه ولست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر، فهلم ننظر ما في كتابنا هذا، فإن يكن أمر خير مضيئنا به وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وعدل الملتمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادي، فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال: ثكلت الملتمس أمه، فانتزع الصحيفة من الغلام واكتفى بذلك من قوله، واتبع طرفة فلم يلحق به، وألقى الصحيفة في نهر الحير ثم خرج هارباً إلى الشام، ثم سار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه، فقال: هل تعلم ما أمرت فيك؟ فقال: نعم، أمرت أن تجيئني وتحسن إليّ، فقال لطرفة: إن بيني وبينك خوولة أنا راع لها، فأهرب من ليلتك قبل أن تصبح ويعلم الناس بمكانك، فإنني قد أمرت بقتلك، فقال له طرفة: اشتدت عليك جائزتي فأحببت أن أهرب وأن أجعل لعمرو على سبيلاً كأنني قد أذنبت ذنباً، والله لأفعل ذلك أبداً، فلما أصبح أمر بحبسه وتكرم عن قتله، وكتب إلى عمرو بن هند: ابعث إلى عملي غيري فإنني غير قاتل الرجل، فبعث إليه عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب واستعمله على البحرين، وكان رجلاً شديداً شجاعاً وأمره بقتل طرفة فقتله^(١).

(١) ديوان طرفة تحقيق يوسف الأعلام الشنمري ص ٩٩

وقد رثته أخته بقولها:

عددنا له ستا وعشرين حجة

فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً

فجمعنا به لما رجونا إياه

على خير حالٍ لأوليداً ولا تحماً^(١)

وهكذا قتل طرفة الشاعر العربي الشاب الذي استطاع أن يخلد اسمه بشعره الذي كان الركن الندي الظليل في حياته، يأوى إليه هرباً من جفاف مشاعر أهله تجاهه، وحلمه الذي يفر إليه من مرارة واقعه الملىء بالأسى.

(١) القحج: هو الذي يقحم نفسه في الأمور

شعراء قتالهم شعرهم

أعشى همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وكنيته «أبو المصباح»، وهمدان جده الأهل
ولقب بالأعشى لضعف بصره.

كان الأعشى فقيهاً وقارئاً للقرآن الكريم، ثم تحول إلى الشعر بعد أن رأى في منامه أنه
دخل بيتاً فيه حنطة وشعير، فقبل له خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير، فقص رؤياه على صهره
الشعبي وكان فقيهاً أيضاً، فقال له: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقلت الشعر، فكان كما
قال.

منذ ذلك الحين أصبح الأعشى من شعراء الكوفة الفصحاء، حتى اعتبره الأصمعي من
الفحول، وقد عاصر الدولة الأموية، وكان شاعراً مواكباً للأحداث منغمساً فيها، ذا موقف
من الدولة وسياستها، فكان لساناً لاذعاً سليطاً عليها، يؤلب أهل الكوفة على الحجاج بن
يوسف الثقفي، وذلك عندما خرج ابن الأشعث على الحجاج وحشد معه أهل الكوفة، فلم
يبق أحد من وجوههم إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم، فكان الأعشى على
رأس الجيوش فارساً، كما كان شاعراً محملاً للجنود كمن يقوم على أمر الشئون المعنوية
في الجيوش الحديثة، ولم يسلم الحجاج رغم غلظته ومحبته للدماء من هجاء الأعشى فضلاً
عن أن الأعشى كان يمدح ابن الأشعث وهو أعدى أعداء الحجاج وأجراً الخارجين عليه،
وهذه وحدها كفيلاً بإثارة حفيظة الحجاج ضد الأعشى وجعله من المطاردين المطلوبين
دماؤهم وما أسعد الحجاج بذلك وهو الذي كان يتفاخر بحبه للقتل وإراقة الدماء. ومن
هجاء الأعشى للحجاج بن يوسف الثقفي قوله:

بالسيد الغطريف^(١) عبد الرحمن

لما سمونا للكفور الفتان

(١) الغطريف: الشريف

سار بسمع كالقطا من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان
أمكن ربي من ثقيف همدان يوماً إلى الليل يسلى ما كان
إن ثقيفاً منهم الكذبان كذا بهما الماضي وكذاب ثان

وقوله:

يا ابن الأشج^(١) قريع كندة لا أبالي فيك عتياً
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كسبياً
نبئت الحجاج بن يوسف خسر من زلق^(٢) فتبياً
فانهض فديت لعله يجلو بك الرحمن كريباً
وابعث «عطية»^(٣) في الخيول يكبهن عليه كبياً

من هاتين المقطوعتين تتضح لنا صورة الأعشى كشاعر هجاء وتكون أكثر جلاءً فهو يهجو الذراع الباطشة للدولة الأموية وهو الحجاج وهو من هو، فكان الأولى - لو كان الأعشى شاعراً مرتزقاً - أن يمدح هذه الشخصية ذات الشأن العظيم في الدولة ويحصل على الأموال والعطايا حيث لم تكن الدولة الأموية بالبخيلة في هذا الشأن، وإنما كانت تصطنع الشعراء وتجندهم لخدمة دعواها، فهي حينما تشتري لسان شاعر معين فهي تشتري قبيلته كلها، فالشاعر ليس شخصاً منعزلاً عن قبيلته، وإنما هو لسان حالها أو المتحدث

(١) الأشج: يقصد عبد الرحمن بن أشعث

(٢) زلق: المكان الذي لا يثبت عليه قدم

(٣) عطية: هو عطية بن عمرو العنبري قائد جيوش عبد الرحمن بن الأشعث

الرسمى باسمها، وقد كان فى إمكان الأعشى أن يفعل ذلك، لكنه - فيما نعتقد - كان شاعراً ذا أيديولوجية وذا موقف محدد من هذه السياسات لذلك كان يرتزق بشعره بعيداً عن هذه المنطقة، فإذا مادخلها هو شاعر لاتنقصه النزاهة والجرأة وحرية الرأى فيمدح أعداء الحجاج ويهجو الحجاج بما يثير حفيظته، ومن مدائحه فى ابن الأشعث قوله:

بجبين أبلج مقوك صنديد	كم من أب لك كان يعقد تاجه
فالمجد بين محمد ^(١) وسعيد ^(٢)	وإذا سألت المجد أين محله
بخ ^(٣) لوالده وللمولود	بين الأشج وبين قيس باذخ
أخلاق مكرمة وإرث جود	ماقصرت بك أن تنال مدى الملا
أعراق مجد طارف ^(٤) وتليد	قرم إذا سامى القروم ترى له
همدان تحت لوائه المعهود	وإذا دعا لعزيمة حشدت له
أسد الإباء سمعن زار أسود	يمشون فى حلق الحديد كأنهم
فى المكرمات ولا ترى كسعيد	ماإن ترى قيساً يقارب قيسكم

من الطبيعى إذن أن يسكن الأعشى رأس الحجاج ويقض مضجعه ويؤرقه بعد ذلك الهجاء المقذع الذى جعل أهل العراق يتجرأون على الحجاج ويخرجون لحربه، وبعد ذلك مدحه للأشعث الذى جمع القوم حوله فأزروه وناصروه وخرجوا معه لقتال

(١) محمد: هو أبو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
(٢) سعيد: هو ابن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعلى ذلك يكون المجد مقصوداً به عبد الرحمن نفسه لأنه بين ابنه وأبيه
(٣) بخ: كلمة استعسان ومدح
(٤) الطارف: المستحدث والتليد عكسه

الحجاج.

يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغانى» (لما أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأعشى همدان قال: الحمد لله الذى أمكن منك، ألسـت القائل:

لما سمونا للكفور الفـتان الأبيات (١)

أولست القائل:

يا ابن الأشج قريع كندة لأبالي فـيك عـتـبـبا

..... الأبيات (٢)

كلا ياعدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق. فـتب وحرار وانكب، ومالقى ما أحب، ورفع بها صوته وأربد وجهه وامتز منكباه، فلم يبق أحد فى المجلس إلا أهمته نفسه وارتعدت فرائصه، فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير:

أبى الله إلا أن يتم نوره	ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلاً بالمراق وأهله	كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
ومالـبـث الحجاج أن سل سيفه	عليـنا فولى جمعنا وتبـددا
ومازاحف الحجاج إلا رأيتـه	حساما ملقى للحروب معمودا
فكيف رأيت الله فرّق جمعهم	ومزقهم عرض البلاد وشردا

(١ و ٢) ارجع للأبيات فى أول الفصل من هذه الدراسة

بما نكثوا من بيعة بعد بيعة	إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة	من القول لم يصعد إلى الله مصعدا
ليهناً أمير المؤمنين ظهوره	على أمة كانوا بغاة وحسدا
وجدنا بنى مروان خير أئمة	وأعظم هذا الخلق حلما وسؤددا
وخير قريش من قريش أرومة	وأكرمهم إلا النبي محمدا
إذا ماتدبرنا عواقب أمرنا	وجدنا أمير المؤمنين المسددا
سيغلب قوماً غالبوا الله جهرة	وإن كايده كان أقوى وأكيدا
كذلك يضل الله من كان قلبه	ضعيفا ومن والى النفاق وألحدا
تعطف أمير المؤمنين عليهم	فقد تركوا أمر السفاهة والردى
لعلهم أن يحدثوا العام توبة	وتعرف نصحاً منهم وتوددا
لقد شمت يا ابن الأشعث العام مصرنا	فظلوا وما لاقوا من الطير أسعدا
كما شاءم الله النجير وأهله	بجدك من قد كان أشقى وأنكددا

فقال من حضر من أهل الشام: فقد أحسن أيها الأمير، فخل سبيله، فقال: أتظنون أنه أراد المدح، لا والله! لكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه وأراد به أن يحرض أصحابه، ثم أقبل عليه فقال له: أظننت ياعدو الله أنك تخذعنى بهذا الشعر وتنفلت من يدي حتى تنجوا! ألسنت القائل ويحك!

وإذا سألت: المجد أين محله
بين الأغـر وبين قيس باذخ
والله لا يخبخ بعدها أبداً. أولست القائل:
وأصابني قوم وكننت أصيبتهم
فالمجد بين محمد وسعيد
بخ بخ لوالده وللمولود
فاليوم أصبر للزمان وأعرف
كذبت والله، ما كنت صبورا ولا عرفاً، ثم قلت بعده:

وإذا تصيبك من الحوادث نكبة
فأصبر فكل غيابة ستكشف
أما والله لتكون نكبة لا تنكشف غيابتها عنك أبداً، يا حرسى، اضرب عنقه، فضرب عنقه،
فكان أعشى همدان قتيل الحجاج أو قل قتيل شعره.

بعد ما قلناه عن نزاهة الأعشى وموقفه من الدولة الأموية يحق له علينا أن نقف وقفة مع
القصيدة التي مدح بها الحجاج، فليس مما يقبله العقل أن يكون الأعشى مخلصاً على مدحة
للحجاج بعد ذلك التهاجي الذي أدى إلى مقتله، ولعل الأعشى كان قد أعد هذه القصيدة
تحسباً لموقف كهذا، فليس من الطبيعي أن يرتجلها في مثل هذه الظروف، وليست سرعة
البدئية وحدها كافية لإخراج مثل هذه القصيدة وفيها ما فيها من الغمز والهجاء المرتدى
ثياب المدح كما سيتضح عند الوقوف على بعض معانيها، فمثلاً في قوله:

أبى الله إلا أن يتم نوره
ويطفىء نار الفاسقين فتحمدا

في هذا البيت سخرية خفية لا يدركها إلا ذو بصر بالشعر ومعانيه وطرائقه، فالله سبحانه
قد أتم نوره بالإسلام الذي جاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست البشرية في
حاجة لبنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة وحوّلوها إلى ملك يتوارثونه، لكى يتم بهم نور الله

في الأرض، كذلك قوله:

وما زاحف الحجاج إلا رأيتـه حساماً ملقى للحروب معوداً

فظاهر البيت يصف الحجاج بالشجاعة، لكن البيت يعرض به ويصفه بأنه فقط مجرد سيف في يد الدولة الأموية تطعن به كيف تشاء، وقوله «ملقى» فيه ما فيه من السخرية، فكأن الحجاج شيء حقير يلقي به، فإذا جاء بخير فهو للدولة وإن هلك لم تخسر الدولة بهلاكه شيئاً. كذلك قوله:

بما نكثو من بيعة بعد بيعة إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غداً

إشارة إلى عدم استقرار عرش الدولة الأموية وإلى نقض الناس البيعة لهم لأنهم مغتصبو الخلافة غير مستحقيها.

ثم هو يشير بمهارة إلى أن الناس حينما يبايعو اليوم للخلافة الأموية تحت وطأة الحرب فإنهم سريعاً ما ينقضون بيعتهم لأنهم غير راضين عنها.

وكذلك قوله:

وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعداً

فمن الذي أحدث هذه البدعة، أهم الذين رفضوا أن يبايعوا مغتصب الخلافة أم الذي اغتصب الخلافة وحولها إلى ملك يرثه الابن عن أبيه، وهذا ما لا يقبله الله، فالبيت إذن غمز وتعريض بالبدعة التي استحدثها الأمويون.

أما قوله:

وجدنا بني مروان خير أئمة وأعظم هذا الخلق حلماً وسؤداً

وخير قریش فی قریش أرومة وأكرمهم إلا النبي محمداً

ففى كلمة «أئمة» تهكم شديد بالأمويين لأنهم ملوك وليسوا أئمة وتفضيلهم على الخلق أيضاً بقوله: «وأعظم هذا الخلق» مبالغة مقصودة من قبل الأعشى ليفهم السامع المتبصر أنه إنما أراد الهجاء، وتأمل معى تفضيله لهم على قریش جمعاء باستثناء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد فضلهم على كرام الصحابة والمسلمين السابقين للإسلام وذلك تعريض واضح وقوله: كذاك يضل الله من كان قلبه ضعيفاً ومن والى النفاق وألحداً

فى هذا البيت أيضاً دعاء على الحجاج وعلى الدولة الأموية، فالأعشى أطلق البيت ولم يحدده وإنما قال: «من كان»، ومن يكون قلبه ضعيفاً غير الحجاج الذى باع آخرته بدنياه غيره فما ربحت تجارته. وقوله:

لقد شمت يا ابن أشعث العام مصرنا فضلوا وما لا قوا من الطير أسعدا

هذا البيت يحمل استخفافاً شديداً بعقلية الحجاج، فهو أمامه يهجو ابن الأشعث الذى طارت مدائحہ فيه كل مطار، فهو يفعل ذلك أمام الحجاج وكأنه يخاطب طفلاً صغيراً يمكن أن يسترضيه بسب أو بضرب طفل آخر أغضبه أو أخذ منه لعبته.

يمكننا بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض أبيات القصيدة أن نتيقن من نزاهة الأعشى وتمسكه بمبادئه حتى آخر لحظة فى حياته، فكان قتيل شعره الذى كان يعبر به عن قضيته وذاته فى مواجهة أكبر الأشرار وهو الحجاج بن يوسف الثقفى.

شعراء قتلهم شعرهم

وضاح اليمن

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داد بن أبي جمد، وسمى «وضاح» لجماله، وقد اختلف العرب قديماً في نسبه فمنهم من يقول إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهزر لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة، ومنهم من يقول إنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم الذي ينتهي نسبه إلى يشجب بن يعرب، ولأن الرجل لم يمارس ولم يتهم ولم يتصف بالشعوبية فلا نرى حاجة لتقص نسبه ومحاولة ترجيح أحد الرأيين على الآخر، وإن كان الرأي القائل بعروبة نسبه له ما يقويه على الرأي الآخر، فله بيتان يتغزل فيهما بينات عمه فيقول:

إن قلبى معلق بنساء واضحات الحدود لسن بهجن

كان الوضاح شديد الجمال كما قلنا وكأ أحد ثلاثة من العرب يردون المواسم مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم، وهؤلاء الثلاثة هم المقنع الكندي، وأبو زيد الطائي، ووضاح اليمن.

ولاشك أن هذا الجمال كان بمثابة تصريح المرور لدى الوضاح فكان يهوى النساء وكانت النساء بدورهن يقعن أسيرات هواه، وقد عشق الوضاح امرأة قال لها «روضة» وقد اختلف أيضاً في نسبها، فمن العرب من يراها يمنية ومنهم من يراها فارسية ولأننا لانرى أهمية لهذه القضية في سياقنا هذا فلن نطرح هذا الأمر للمناقشة، فهي ليست بالنسبة لنا أكثر من امرأة عشقها الشاعر وكتب فيها بعض القصائد، ولايهم إذا كانت عربية أو فارسية أو رومية، عشقها الوضاح واشتد كلفه بها حتى اشتهر أمره معها وقد ذكرها في أشعاره دون كناية أو تورية أو مداراة، مما جعل رفض أهلها زواجه منها أمراً طبيعياً بعد ذلك، فالعرب ترفض تزويج الفتاة لمن يذكرها في شعره أو يشيع أمر

حبه على الملاء، خشية أن يظن الناس أن هذا الزواج إنما تم لستر أمر ما قد حدث بين
العاشقين، ومن شعره في روضة قوله:

ياروضة الوضاح قد	عنيت وضاح اليمن
فاسقى خليلك من شرا	ب لم يكدره السدرن
إنى تهيجنى إليك	حمامتان على فن
الزوج يدعوا إليه	فتطاعما حب السكن
لاخير فى نث ^(١) الحديد	ك ولا الجليس إذا فطن
فاعصى الوشاة فإنما	قول الوشاة هو الغبن
إن الوشاة إذا أتو	ك تنصحووا ونهوك عن ^(٢)
لوقيل ياوضاح قم	فاختر لنفسك أو تمن
لم أعد روضة والذى	ساق الحجيج له البدن

لعلنا الآن نقف على طبيعة الغزل عند الوضاح، فلم يكن الوضاح شاعراً يتغزل غزلاً
عفيفاً، ولا غزلاً صريحاً، ولكنه كان يمزج بينهما بشكل فنى طريف، فالمفردات عفيفة والمعنى
صريح يبدو عند التأمل والتحقيق فى بعض الصور ففى قوله:

(١) نث الحديث: إذاعته

(٢) يرريد أن يقول عنى وقد حذف الياء للوزن والقافية

فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره الدرر
إنى تهيجنى إليك حمامتان على فن

واضح أنه غزل صريح وإن كان اللفظ يأخذ القارىء فى البداية بعيداً عن هذه الرؤية،
فماذا يكون ذلك الشراب الذى لم يكدره الدرر إن لم يكن هو ريق حبيبته؟ وماهو وضع
الحمامتين اللتين «تهيجان» الشاعر على الفن؟

أليس وضعاً غرامياً مثيراً يود لو فاز بمثله مع محبوبته.

ومن طريف مقاله الوضاح فى روضة قوله:

ياروض جيرانكم الباكـر فالقلب لالاه ولاصاهر
قالت ألا لاتلجن دارنا إن أبانا رجل غـائر
قلت فإنى طالب غرة منه وسيفى صارم باثر
قالت فإن القصر من دوننا قلت فإنى سابع ماهر
قالت فحولى إخوة سبعة قلت فإنى غالب ماهر
قالت فليث رابض بيننا قلت فإنى أسد عاقر
قالت لقد أعييتنا حجة فأت إذا ماهجع السامر
فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا نساء ولا زاجر

هذه لوحة جميلة تصور أول ماتصور خصوبة خيال الشاعر الذى تخيل كل ذلك الحوار
بينه وبين حبيبته، وأعذب ما فيها هو تخيله لطول الحوار الذى يتمناه ويصعب على من هم

فى مثل ظروفهم أن يتبادلوه فى هدأة وسكينة، فتصور أنها جالسة فى أمان بعيداً عن أعين الرقباء وما أكثرهم ثم راح يرجو وصلها رجاء المشتاق الظمىء المعذب، بينما رراحت هى تحذره بدورها من عواقب تلك المجازفة، ولعل الوضاح كان يلتمس لحبيته العذر إثر العذر من خلال هذه العقبات التى كانت تضعها أمامه أو أمام لقائهما أو عبارة أخرى من خلال هذه العقبات التى يضعها هو على لسانها، وكأن لسان حاله يقول لها: «أعرف يا حبيبتي ما يمنعك منى».

ليس من الصواب أن يتصور القارىء لهذه الأبيات أن حواراً حقيقياً قد دار بين الوضاح وروضته ثم صاغه الوضاح شعراً بعد ذلك، فالأبيات تنتمى للون من الشعر يمكن أن نسميه شعر المجون وهو لون معروف سبق الواضح فيه شاعر كعمر بن أبى ربيعة الذى كان يحكى فى قصائده مغامراته مع النساء وكيف زارهن واستقبلنه وكيف قضى وطره منهن ثم كيف خرج من عندهن برغم المخاطر التى تحف ذلك، لكننا لن نتوقف عند ذلك الدليل، فليس معنى وجود ذلك اللون أن كل شعر يشبهه ينتمى إليه، لكننا سوف نأتى بدليل تخيل الحوار من الحوار ذاته، فإنه من المضحك بالفعل أن تحذر الفتاة حبيبها من أبيها فيقول لها:

قلت فىنى طالب غرة منه وسيفى صارم بائر

أليس من المضحك أن يفند الوضاح حجة حبيته بقتل أبيها، فكأنه يقول لها إذا كان أبوك هو المشكلة قتلناه على غرة منه، وأى ليث ذلك الرابض بينهما لكى يكون الوضاح أمامه أسداً عاقراً، وقد تجاوزنا عن القصر والبحر والأخوة السبعة حول الفتاة. إن الوضاح بينه وبين نفسه أخذ يتصور كل ما يمكن أن يحول بينه وبين فتاته ويتصور أيضاً أنه يتغلب على

كل ذلك، ففي نهاية الأبيات يقول:

قالت لقد أعييتنا حجة فأت إذا ما هجع السامر

هذا البيت يؤيد أيضاً ما قلناه، فلم يكن الحوار بينهما مجرد جدل بيزنطى ينتهى بنصرة أحدهما على الآخر بقوة حجته ولكنه - إن كان حواراً حقيقياً - يترتب عليه حدث هام هو زيارة الشاعر لمحبوبته، وليس من السهل ذلك كما أن براعته فى المحاوره لا يمكن أن تلغى تلك المخاطر التى تصور أنها بهذه السهولة.

لم يكن الوضاح لينسى حبه بمجرد رفض أهل حبيبته تزويجه إياها، فالحب ليس من العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تتأثر أو تهتز لمثل هذه الأمور، فهو علاقة شديدة الخصوصية بينه وبين حبيبته، لذلك تراه يذكرها فى شعره حتى بعد أن زوجت غيره، فيقول:

يا أيها القلب بعض ما تجرد قد يعشق المرء ثم يتئد
قد يكتم المرء حبه حقياً وهو عميد وقلبه كمد
ماذا تريد من فتى غزل قد شفه السقم فيك والسهد
يهددونى كيما أخافهم هيهات أنى يهدد الأسد

لقد أصر وضاح على حبه لروضة حتى تدخل القدر ففرق بينهما الفراق الذى ليس بعده لقاء، فقد أصيبت روضة بمرض الجدام، وكان العرب يعزلون مرضى الجدام فى أماكن خاصة نائية عن الأماكن المأهولة كتلك التى نسميها الآن مناطق «الحجر الصحى» خوفاً من انتشار المرض بين الناس، وقد مر عليها الوضاح أثناء سفره مع بعض أصحابه، فاستوقفهم

وعدل عنهم ساعة فزارها وأصلح من شأنها وأعطاهم نفقة من ماله ثم عاد لأصحابه يبكي، فلما سألوه عن سبب بكائه أخبرهم بما رأى، لكن من الغريب أننا لا نجد للوضاح شعراً يرثى به روضة، ربما قال ذلك الشعر فضاع مع ماضع من الشعر العربي الذي لم تستطع السنوات الطويلة أن تحتفظ به كله، وربما ماتت ولم يعلم بموتها، وربما أراد أن يحتفظ بذكرها ندية في نفسه، فرثاؤه لها يؤكد فكرة موتها التي ربما كان يود الفرار منها، كأنه يريد أن يحيا حياة المشتاق المعذب ويفضلها على حياة الفاقد الثاكل، ربما أراد أن يكون آخر عهده بها قوله:

لوقيل ياوضاح قم فاختر لنفسك أو تمن
لم أعد روضة والذي ساق الحجيج له البدن

حينما أقف أمام شخص ما تسبب جماله في هلاكه أذكر على الفور قول الشاعر حافظ إبراهيم:

فوردة الروض لولا حسن منظرها لما استطالت عليها كف جانبها

فاليد تمتد لتقطف الوردة غير عابئة كثيراً بمصير هذه الوردة، ولم يكن الوضاح أقل جمالاً من وردة امتدت إليها يد أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك فأهلكتها.

كانت أم البنين في حجها قد قدمت مكة ومعها بعض جواربها، وقد كتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن معها، لكنها حينما وقعت عينها على الوضاح هويته، وطلبت منه ومن كثيراً أن ينسبها بها، لكن كثيراً أدرك عاقبة ذلك وتحسب له فعدل عن النسب بها ونسب بجارية لها تسمى غاضرة فقال:

شجا أظعان غاضرة الغوادي بغير مشورة عرضاً فؤادي

حنو العائدات على وسادى

أغاضر لو شهدت غداة بنتم

بواقلة تلذع كالزناد

أويت لعاشق^(١) لم تشكمييه

لكن الوضاح لم يكن على ذلك القدر من الحذر والحيطه، فقد انطلق لسانه برقيق الشعر نسيباً في أم البنين، متغافلاً عن مكانتها ومكانة زوجها وهو من هو في الدولة، ولسنا نرى لجرأة الوضاح ما يبررها لامن الناحية العقلية ولا من الناحية العاطفية ولا من الناحية المادية.

فمن الناحية العقلية لم تكن أم البنين امرأة عادية شأنها شأن كل النساء اللاتي يمكن أن يتناولهن شاعر بالنسيب مستنداً إلى بأسه أمام بأس زوجها، أو إلى بأس قبيلته أمام بأس قبيلتها، إنما كانت أم البنين زوجة الرجل الأول في الدولة وهو خليفة المسلمين، لذلك لا يمكن أن نمر بهذه المسألة دون أن نسجل استنكارنا لموقف الوضاح وجرأته التي جرت عليه الهلاك ووضعته في طريق رجل من عائلة جاءنا تاريخها مكتوباً بدماء قتلاها.

أما من الناحية العاطفية فلم يكن الوضاح عاشقاً يتحرق شوقاً لأم البنين فيتدفق اسمها في أشعاره وهو في نشوة المحب الغائب في نوبة شوقه، فيغفل أو يتغافل عن مكانة محبوبته ومكانة زوجها، إنما كان شاعراً جميلاً الوجه عشقته زوجة الخليفة وأرادت أن يؤثرها على النساء وينسب بها نسيباً يرضى غرور أنوثتها، فالمرأة هي المرأة في أي عصر وأي مكان ومكانة، تحب أن تكون الأثيرة لدى الرجال وأن يشتهر ذلك عنها، وليس أقدر على ذلك من

(١) أويت لعاشق: أشفقت عليه

الشاعر الذى كان فى ذلك العصر أوضح أجهزة الإعلان صوتاً لالتفاف الناس حوله وجريان شعره على ألسنتهم وترديده فى كل متدى وسوق، لكن ذلك لا يبرر للوضاح مافعله، فقد كان فى إمكانه أن يسترضيها بشيء غير حياته ولن يتهم بالبخل حينئذٍ أو بالجبن أو بالتخاذل.

أما من الناحية المادية فلم يثبت أن الوضاح كان فقيراً فيضطر لفعل مافعل طلباً للمال، ولو كان فقيراً لاحترف المدح والوقوف بباب الأغنياء وذوى المناصب فى الدولة، لكن تاريخه مملوء بقصص الهوى وشعر الغزل، كما أن النساء لاتيجهن الشاعر المتغزل بالمال وإنما لهن ثروتهن التى يمكن أن يهين منها دون أن تنتقص شيئاً، وكان الأولى به أن يمدح زوجها وهو الخليفة فيعطيه ما يغنيه وينصلح به حاله، وهذا بالضبط مافعله، فقد قال فيه بعض القصائد التى أشاد فيها بقوته وكرمه وسماحته وغير ذلك مما كان يمدح به الملوك والخلفاء، لكن ذلك حدث بعد فوات الأوان، فسرعان ما انتشر شعره فى أم البنين فلم تعد لمدائحه أى صدى عند الخليفة، فذلك أمر لا يمكن لقصيدته مهما بلغت فخامتها أن تمحوه أو تخفف من حدة وطأته، لذلك لا نرى للوضاح عذره المادى.

أما التفسير الوحيد الذى يمكن أن نطرحه لموقف الوضاح فهو تفسير نفسى، فوجود كثير معه فى نفس الموقف ربما فتح عليه باب التميز والاختلاف، فأراد أن يصرح باسمها بعد أن تجاوز كثير عن ذلك وشبب بجاريتها «غاضرة»، ورغبة الرجل فى التميز أمام المرأة لا يعادلها إلا رغبة المرأة فى التميز أمام الرجل، ويمكننا أن نقول إن العالم لو خلا من النساء لخلا من بطولات الرجال، فلا يمكن أن نتصور أن الحروب التى خاضها عنتره من أجل عبلة كان من الممكن أن يخوضها من أجل رجل آخر أياً كانت مكانته بالنسبة لعنترة، فالمسألة بعد تجريدتها

من تفاصيلها هي مسألة امرأة عاشقة ورجل شاعر.

لعله من المناسب الآن أن نورد بعض أشعاره في أم البنين لنرى كيف يموت الرجل المجرد من أجل المرأة المجردة.

يقول وضاح:

أصحت عن أم النبي	من وذكرها وعنائها
وهجرتها هجر امرئ	لم يسل صفو صفائها
قرشية كالشمس أشـ	م رق نورها بيهاها
زادت على البيض الحسا	ن بحسنها ونقائها
لما اسبكرت للشبا	ب وقنعت بردائها
لم تلتفت للذاتها	ومضت على غلوائها
لولا هوى أم النبي	من وحاجتى للقائها
قد قربت لى بغلة	محبوسة لنجائها

ومن شعره أيضاً مقطوعات أوضح غزلاً من المقطوعة السابقة وأكثر جرأة، يقول:

صدع البين والتفرق قلبى	وتولت أم البنين بلسبى
ثوت النفسى فى الحمول لديها	وتولى بالجسم منى صحبى
ولقد قلت والمدامع تجرى	بدموع كأنها فيض غرب
جزعاً للفراق يوم تولت	حسبى الله ذو المعارج حسبى

وإذا كان الشاعر في المقطوعتين السابقتين يستخدم في خطاب أم البنين ضمير الغائبة،
أى أنه يتكلم عنها ولا يكلمها فإنه في المقطوعة التالية يخاطبها خطاباً مباشراً فيقول:

يا بنة الواحد جودى فما	إن تصرمينى ^(١) فبمما أولما
جودى علينا اليوم أرى نى	فيم قتلت الرجل المسلما
معلق القلب كتعليقها	واضحة كفاً علت معصما
ربة محراب إذا جئتها	لم ألقها أو ارتقى سلما
لامنة أعلم كانت لها	عندى ولا تطلب فينا دما
بل هى لما رأت عاشقاً	صبا رمته اليوم فيمن رمى
لما ارتمينا ورأت أنها	قد أثبتت فى قلبه أسهما
أعجبها ذاك فأبدت له	سنتها ^(٢) البيضاء والمعصما
قامت تراءى على قصرها	بين جوار خرد ^(٣) كالدمى
وتمقد المرط ^(٤) على جصرة ^(٥)	مثل كثيب الرمل أو أعظما

لعلنا نجد دوافع القتل واضحة جلية فى تلك المقطوعة لدى الوليد بن عبد الملك، فالبيت
الأول يقطر عشقاً متجاوزاً كل الحدود، فهو يستخدم النداء بـ «يا» وهى حرف ينادى به

(١) تصرمينى: تقاطعيني
(٢) سنتها: وجهها
(٣) خرد: جمع خريدة وهى البكر التى لم تمس قط، وقيل هى الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت
(٤) المرط: كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به
(٥) الجصرة: العجيزة

القريب والبعيد، فكأنه يريد أن يصور قربها إلى نفسه وبعدها عن عينيه، واستخدم فعل الأمر «جودى» بما يحمل من دلالات تؤكد وثاقة الصلة بين الشاعر ومحبوبته، والتميز الذى جاء بعد فعل الأمر «فما» يضع الخطوط الأخيرة فتبدو اللوحة مخدعية لا يمكن رؤيتها أو قبولها على غير ذلك، وبذلك تكون الشطرة الأولى مسماراً فى نعش الوضاح.

أما الشطرة الثانية فبدأها الشاعر بأداة الشرط «إن» التى تفيد الشك، فكأنه قد وثق من نفسه ومن قدره عند محبوبته فأصبح يشك فى قدرتها على هجره أو مقاطعته، كما كان واضح الحساسية البلاغية حينما لم يجيء بفعل بعد فعل الشرط «تصرمينى» يكون جواباً له، فكأنه بشكه فى حدوث الفعل الأول يريد أن يستشير اللغة للتعاطف معه من خلال تجاوز قواعدها أو التحايل عليها، لذلك جاء بعد فعل الشرط باستفهامين متوالين غرضهما الاستنكار والتعجب.

والبيت الأخير الذى صور فيه أم البنين وقد عقدت على جسرتها كساءً من الخز، فبدت عجيزتها كأعظم ماتكون إنما كان آخر مسمار فى نعش الوضاح.

وربما أحس الوضاح بما يحيط به من خطر من قبل الخليفة أو بتعبير أنسب من قبل زوج المرأة التى ملأ بها الدنيا شعراً، فراح يتغنى السبل لإرضائه، وقد وعدته أم البنين أن ترفده عنده وتقوى أمره، فمدحه الوضاح بعدة قصائد منها قوله:

وأرقنى خيالك يا أثيلاً

صبا قلبى ومال إليك ميلاً

دقيق محاسن وتكن غيلاً

ثمانية تلم بنا فتبدي

سراعاً يتخذن النقع سيلاً

فإنك لو رأيت الخيل تعدو

إذا لرأيت فوق الخيل أسداً تفيد مغانما وتغيث نيلا
إذا صار الوليد بنا وسرنا إلى خيل نلف بهن خيلا
وتدخل بالسرور ديار قوم وتعقب آخرين أذى وويلا

وكما كان الوليد يجزل صلة الشعراء فقد أجزل صلة الواضاح وأحسن رفده
وأغدق عليه بالعطايا حتى بلغه أنه شبب بأم البنين فجفاه وأمر بأن يحجب عنه ودبر
في قتله.

يورد أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» بعضاً من الروايات حول قتل الواضاح،
تختلف في تفاصيلها وتتفق في نتيجتها، ففي إحدى هذه الروايات، أن الواضاح قد شبب بأم
البنين، فأمر الوليد بن عبد الملك بطلبه، فأتى به، فأمر بقتله فقال له ابنه عبد العزيز: لا تفعل
يا أمير المؤمنين فتحقق قوله، ولكن افعل به كما فعل معاوية بأبي دهيل، فإنه لما شبب بابنته
شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال: إذن تحقق قوله، ولكن تبره وتحسن إليه فيستحي ويكف
ويكذب نفسه، فلم يقبل الوليد من ابنه، وجعل الواضاح في صندوق ودفنه حياً.

وفي رواية ثانية أن أم البنين عشقت وضاحاً، فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم
عندها، فإذا خافت وارتته في صندوق عندها وأقفلت عليه، فأهدى للوليد جوهر أعجبه،
فدعا خادماً له فبعث به إلى أم البنين وقال: قل لها: إن هذا الجوهر أعجبنى فأثرتك به،
فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة
الوليد ودفع إليها الجوهر، ثم قال: يامولاتي هبيني منه حجراً، فقالت: لا يا ابن اللخناء
ولاكرامة، فرجع إلى الوليد فأخبره فقال: كذبت يا ابن اللخناء، وأمر به فوجئت عنقه، ثم
لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط، وقد وصف له الخادم

الصندوق الذى أدخلت الوضاح فيه، فجلس عليه ثم قال لها: يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك! فلم تختارينه؟ فقالت: أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها كلها من قريب.

فقال لها: هبى لى صندوقاً من هذه الصناديق، قالت: كلها لك يا أمير المؤمنين، قال: ما أريدها كلها، إنما أريد واحداً منها، فقالت: خذ أيها شئت، قال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ما أريد غيره، قالت: خذه يا أمير المؤمنين، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه، ثم دعا عبيده فأمرهم فحفروا بئراً فى المجلس عميقة، فنحى البساط وحفرت إلى الماء ثم دعا بالصندوق فقال: يا هذا إنه بلغنا شىء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وودفنا ذكرك وقطعنا أترك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإننا دفنا الخشب وماهون ذلك، ثم قذف فى البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه، ثم مارئى بعد ذلك لوضاح أثر فى الدنيا، ومارأت أم البنين لذلك أثاراً فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما.

وفى رواية ثالثة أن الوليد بن عبد الملك بلغه تشبيب وضاح بأم البنين فهم بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه، وقال له: إن قتله فضحتنى وحققت قوله، وظن الناس أن بينه وبين أمى ريبة، فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغ الوليد أنه قد تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، وقال فيها:

أخت الخليفة والخليفة بعلمها

بنت الخليفة والخليفة جدما

وكذاك كانوا فى المسرة أهلها

فرحت قوابلها بها وتباشرت

فأحرق واشتد غيظه وقال: أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساءنا وأخواتنا، ولاله عنا
مذهب! ثم دعا به فأحضر، وأمر بيتر فحفرت ودفنه فيها حياً.

مهما يكن من أمر هذه الروايات فلن نحاول ترجيح واحدة منها على الأخرى مادامت
الروايات جميعاً تتفق في دفن الوضاح، لكن أخباره وذكره وأشعاره لم تدفن معه كما كان
يعتقد الوليد.

شعراء قتلهم شعروهم

بشار بن برد

(لبشار فى تاريخ الأدب العربى صورة حالكة شديدة السواد، أسهم فى رسمها مؤرخو هذا الأدب، قدامى ومحدثون، ويطول المقام لو حاولنا حصر الصفحات الديمة التى ألصقت به، ويكفى أن نعرف أن هذه الصورة فى النهاية تكان تكون تجسيدا حيا للشرك الكامل المتجرد من كل ذرة من الخير، ولعل هذا ما يبيح لنا أن نزع من البداية أن مثل هذه الصورة المفرطة لا يعقل أن تتحقق - لاهى ولانقيضتها المبالغة فى الخير - فى بشر لأن الأرض التى نعيش عليها لم يخرج إليها الشياطين، كما لم تنزل عليها الملائكة.

بشار فى هذه الصورة الشائعة: قاسى القلب، حاقد على البشر، يعنى فى هجائهم ويتلذذ به، داعر فاجر لا يعرف للعرض حرمة، شديد التهالك على النساء، يندفع إليهن اندفاعاً حيوانياً يشمئز منه الذوق.

كما جمع إلى دمامة الخلة - فى هذه الصورة - ثقل الروح وغلظة الشعور، وجبن الطبع، وتلون الرأى وخيانة الصديق، ثم هو زنديق منافق، وشعوبى متبجح، وهجاء سليط اللسان^(١).

وهذه الصورة التى رسمها معاصروه والتى لم تزدها القرون إلا قتامة، وجدت من النقاد المعاصرين من يلقى عليها كثيراً من الظلمة التى صورت الرجل وكأنه غول متوحش مستندين إلى صفاته الجسمية، فقد (كان ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً طويلاً، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمىً وأفظعه منظراً)^(٢).

(١) محاضرات فى الأدب العباسى للدكتور محمد عبد العزيز موافى ص ١٢٩ مكتبة الشباب

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٨٧ ط. دار الشعب

ولم يدركوا أن هذا الأمر - لخروجه عن إرادته - لا يمكن أن يكون منقصة في الرجل ولا عيباً حصله ولا جرماً ارتكبه فيحاكم عليه.

واللوحة التي وصلتنا مصورة الملامح النفسية لبشار، لاشك هي لوحة كاريكاتورية تحمل بين خطوطها الكثير من المبالغة المقصودة وغير المقصودة، ولاشك أن بعض مواقف بشار والتي استخدمها معاصروه ومعاصروننا في رسم هذه اللوحة كانت وليدة مواقف أخذها منه مجتمعه، فكانت مواقفه في مواجهة مواقفهم، ولم تكن طبيعة متأصلة في نفس الرجل..

ففي مسألة حقه على البشر - إن قبلناها كما وصلتنا - نجد واحداً منهم يتعرض لهجاء بشار، فيغلظ له القول ويعيره بعماء، ويرمى أمه بالزنا،

يقول أبو هشام الباهلي:

وعبدى فقا عينيك في الرحم أيره
فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
أملك يا بشار كانت عفيفة
على إذا مشى إلى البيت حافياً

كيف تتوقع رد فعل رجل حساس رهيف الشعور، حينما يسمع ذلك الهجاء الذي يقدم تعليلاً فيزيقياً لحدوث عاهته التي لا يستطيع أن ينساها، وكيف ينساها وكل ما في حياته الخاصة، والحياة العامة يذكره بها؟!!

يقول أبو الفرج:

(ولم يزل بشار منذ قال فيه هذين البيتين منكسراً)، لقد انكسر الرجل، فهل نلومه على محاولته لم شتات نفسه المنكسرة ومحاولته إصلاحها، ألا يمكن أن نتوقع سلوكاً

مغايراً لبشار تجاه البشر إذا كانت الظروف مغايرة، وربما كان حمق المحيطين به سبباً آخر من أسباب تبرمه بالناس، (فقد رفع له غلامه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار قائلاً: والله ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدئت عين الشمس، حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجره من يجلوها عشرة دراهم)^(١)، ألا يستدعى ذلك الأمر حنقاً من الرجل أمام حمق غلامه أو خبثه، فربما أراد أن يأخذ الدراهم العشرة لنفسه، فبشار لن يستطيع التحقق من جلاء المرأة، فوضعه بذلك - على الرغم من تهامة المسألة فى أزمة كبرى، فكان رد فعله الطبيعى ذلك السخط الذى أغرق فيه غلامه.

يروى أبو الفرج:

(مر رجل ببشار فقال: يا بشار، فقال: من هذا الذى لا يكتفى ويدعونى باسمى؟ فقال: سأخبرك من أنا، فأخبرنى أنت عن أمك: أولدتك أعمى، أم عميت بعدما ولدتك؟ فقال: وماتريد إلى ذلك؟ قال: وددت أنه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر إلى وجهك فى المرأة، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك، فقال: ويحكم! من هذا؟ أما أحد يخبرنى من هذا؟ فقال له: على رسلك، أنا رجل من عكل خالى يبيع الفحم بالعبلاء، فما تقدر أن تقول لى؟ قال: لاشىء اذهب، بأبى أنت فى حفظ الله)^(٢).

إن هذه الغلظة التى لا يَحتمل سماعها من لاناقة له فى الأمر ولا جمل، من الصعب جداً

(١) الأغاني ص ١٠٠٨

(٢) الأغاني ص ١٠١٨

أن نطالب رجلاً كبشار بتحملها، فإذا لم يفعل اتهمناه بالتبرم بالناس وبضيق الصدر وثقل الروح.

والغريب أن هذا الرجل المسكين كان محسوداً من شعراء عصره على ما يناله من عطايا، وقد فرض عليه شاعر يسمى «أبو الشمقمق» جزية سنوية يأخذها منه، إلى جانب ما تيسر من كل أعطية يعطاها بشار، (أمر عقبه بن مسلم لبشار بعشرة آلاف درهم، فأخبر أبو الشمقمق بذلك، فوافى لبشار فقال له: يا أبا معاذ إني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون:

هَلِّينَا هَلِّينَا طَعْن
قِثَاةً لَتِينَا
إِنْ بَشَارَ بِنَ بَرْدٍ
تَيْسَ أَعْمَى فِي سَفِينَا

فأخرج إليه بشار مائتي درهم وقال: خذ هذه ولا تكن راوية للصبيان يا أبا الشمقمق^(١).

أليس غريباً من شاعر هجاء أن يدفع ثمن السكوت عنه؟ ألم يكن من الطبيعي أن يتركه بشار يقول ما يقول، ثم يرد عليه؟! لقد كان بشار يشفق على نفسه من هجائهم، ولا شك أنه كان يعتقد بعدم التكافؤ بينه وبينهم، لامن الناحية الفنية، فقد كان بشار أقدمهم هجاء وأسلطهم لساناً، وقد تعرض لهجاء جرير شخصياً وقد أحزنه أن جريراً لم يرد عليه، لكن المسألة تختص بالآفة، إنه يحاول أن يتجنب مهاجاة من يبدأون بذكرها في هجائهم له، لأنه في هذه الحالة لن يستطيع الرد عليهم بمثل ما قالوا، وربما كان للهجاء تصور خاص في ذهن

(١) الأغاني ص ١٠٤١

بشار يخرج منه ماقاله أبو هشام الباهلى وأبو الشمقمق فلا مجال إذن للرد عليهم لأن ماقالوه ليس هجاءً فى تصور بشار وذلك ما أرححه، وهذا أيضاً يدحض الرأى القائل بجبنه عندما سكت عن من يهجوّه ولم يرد عليهم.

أما عن ثقل الروح فهى تهمة نراها تلصق بأى رجل غير بشار، فالفكاهة والدعابة وسرعة البديهة وخفة الروح عند بشار تفوق نظيراتها عند غيره من شعراء عصره، وسيرته تحمل الكثير من المواقف والشواهد على ذلك، يروى أبو الفرج: (مر بشار يقوم يحملون جنازة، وهم يسرعون المشى بها، فقال: مالهم مسرعين! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم؟)^(١).

هذه لفتة ودعابة إن صدرت عن رجل ثقيل الروح لفضل الناس ثقل الروح على خفتها. وبلغ بشار من خفة روحه أنه قال شعراً على لسان حماره الذى مات، وقد رآه فى المنام وسأله عن سبب موته، فقال:

سـيـلـى خـلـبـى أـنـا	عـنـد بـاب الأـصـبـهـانـى
تـيـمـتـنـى بـنـان	و بـدـل قـد شـجـانـى
تـيـمـتـنـى يـوم رـحـنا	بـشـنـايـا هـا الحـسـان
و بـغـنـنـج و دـلـال	سـل جـسـمـى و بـرـانـى

(١) الأغاني ص ١٠٠٧

مثل خد الشيفران

ولهبا خد أسيل

ت إذا طال هوانى

فلذامت ولو عـشـ

فلما سألوا بشاراً عن الشيفران، وكان لفظاً لاتعرفه العرب، قال: وما يدرينى، هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله.

أى خفة روح هذه التى تصور الحمار يموت عشقاً، وتجعله شاعراً غزلاً ينسب بالأتان الذى أضناه وتيمه وأرقه حبها حتى مات، وأى سرعة بديهة تلك التى أسعفته فى الرد على من سأله عن «الشيفران»، فقد أكد أنه يروى شعر الحمار لاشعره، ولا يصح أن يسأل هو عن غريب جاء به غيره ولو كان حماره.

وحشو الشعر بالغريب من الألفاظ أمر اشتهر به بشار، فكان إذا أعوزته القافية لا يتعب نفسه فى طلبها والبحث عنها وإنما كان ينحت لفظاً يراه مناسباً للقافية ويقوله.

يروى أبو الفرج: (كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التى لاحقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غننى للغريض يابن قنان

ف قيل له: من بن قنان هذا، لسنا نعرفه من معنى البصرة؟ قال: وما عليكم منه! ألكم قبله دين فتطالبونه به، أو ثار تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتمونى بإحضاره؟ قالوا: ليس بيننا وبينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغنى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له: إلى متى؟ قال: منذ ولد إلى يوم يموت^(١).

(١) الأغانى: ١٠٠٩

لاشك أن هذا الحوار قد دار بين أناس يضحكون ملء صدورهم، وأخال بشاراً يضحك حتى يفرق الضحك بين الحرف وأخيه في الكلمة التي ينطقها، ثم يتبع ذلك بأن يصفق بيديه، ثم يضرب فخذه بهما وقد تمايل جسمه الضخم، ودمعت عيناه الجاحظتان.

وكما كان بشار مزاحاً في مجالس اللهو، كان أيضاً مازحاً في مجالس الجد والعلم فكان يقول الطرفة اليسيرة التي تهديء من حدة المناقشات وتجدد دم الجلسة من خلال ابتسامة تكون فاصلاً، فيبدأون بعدها بداية جديدة، ومن ذلك (كان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الإذن، فقال بعض موالى المهدي لمن حضر: ما عندكم في قول الله عز وجل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر» فقال له بشار: النحل التي يعرفها الناس، فقال: هيهات يا أبا معاذ، النحل بنو هاشم، وقوله: «يخرج من بطونها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس» يعنى العلم، فقال له بشار: أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك يخرج من بطون بنى هاشم، فقد أوسعنا غثاثة، فغضب وشتم بشاراً، وبلغ المهدي خبرهما فدعى بهما وسألهما عن القصة، فحدثه بشار بها، فضحك حتى أمسك على بطنه، ثم قال للرجل: أجل فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث) (١).

واضح أن بشاراً أدرك ما بالرجل من النفاق الغث الذي جعل من ينافقه يشمئز منه ويوبخه ويهينه، لذلك عمد بشار إلى السخرية اللاذعة منه لأنه أدرك أن

(١) الأغاني ص ١٠٠٤

الرجل يفهم الآيات، ولكن يحلوه أن يفسرها تفسيراً يرائى به المهدي وهو من بنى هاشم.

(مر بشار بقاص في البصرة فسمعه يقول في قصصه: من صام رجياً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرأ في الجنة، صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها، فالتفت بشار إلى قائده فقال: بثت والله الدار هذه في كانون الثاني)^(١).

ربما كان ذلك رد فعل طبيعي تجاه مقولة رجل يدخل في الدين مالميس فيه، ومادام الأمر كذلك فلا بأس من أن يعلق بشار تعليقاً طريفاً فيه فكاهة تطفى على غظيه من كلام الرجل.

ومن أطرف مواقف بشار التي تبرز سخريته من الاتجاهات المذهبية موقفه من رجل يسمى «هلال الرأي» وكان ثقيلاً لا يهتم له الناس، فقال له بشار: (يا هلال أتطيعني في نصيحة أخصك بها؟ قال: نعم، قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت وصرت رافضياً^(٢)، فعد إلى سرقة الحمير فإنها والله خير لك من الرفض)^(٣).

إن هذا الخلط المقصود النابع من ازدراء بشار للرافضة وأتباعها لا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية مرحة متفكهة، تؤثر الضحك على اللجاج في المناقشات العقيمة التي يستمسك كل طرف فيها برأيه دون أن يسمع رأى وحجة الطرف الآخر، فبشار يحسم مثل هذه القضايا

(١) الأغاني ص ١٠٠٦

(٢) الرافضة. فرقة من الشيعة بايعوا زيداً بن علي ثم قالوا له تبرأ من الشيخين فأبى فرفضوه

(٣) الأغاني ص ١٠١٤

بشكل طريف، يناهز برأيه عن سماع المحفوظات التي يمكن أن يرددها هلال والتي حفظها في مجالس الرافضة، وأصبح مهياً لإلقائها في كل مناسبة تتاح.

هذه بعض المواقف التي رأينا أنها تدحض القول بثقل روح بشار وهي نقطة في محيط بالنسبة لما في حياته من مثل هذه المواقف، ولعل الذين قالوا بثقل روحه كان يعوزهم التعاطف معه أو على الأقل قراءة سيرته بحياد بعيداً عن تبرمه بالناس وضيقة بهم.

شعوبيته

أما كونه شعوبياً فهذا أمر ثابت عليه لن نحاول نفيه عنه، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان توضيح ملامح شعوبيته، حتى يتسنى لنا الحكم الصحيح العادل عليها، هل هي رد فعل لموقف العرب تجاه الموالي أم هي نزعة متأصلة في نفس الرجل أخذ ينفث عنها في أشعاره، فقد (ساعد على اتساع الفجوة بين بشار ومجتمعه النظرة العرقية التي نظر بها العربي إلى الموالي غير مطبقين لمبادئ الإسلام في التسوية بين كافة الأجناس «سلمان منا آل البيت».. مكتفين بتطبيق العدل القضائي مهملين إقامة العدل الاجتماعي بينهم. فأخضعوا المجتمع المسلم لنظرة عنصرية يدينها الإسلام وانعكست هذه النظرة في مظاهر شتى من العلاقات الاجتماعية)^(١).

ونتيجة لهذا تعرض بشار لما عاناه غيره من الموالي، لكن بشاراً بحساسيته واعتداده بذاته، وازدراؤه لمجتمعه - لن يسهل عليه تجرع تلك الإهانات، وإذن فلتشتعل

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٢٢

الحرب بينه - هو ومن مائله - وبين المجتمع العربي، وبخاصة بعد أن دالت دولة العرب بقيام ملك بنى العباس على أكتاف الفرس الذين استغلوا وضعهم الجديدي في التنفيس عن أحقادهم المكبوتة، والشار لما لحقهم طوال الحكم الأموي الذي أزرى بهم وأخرهم عن غيرهم.

ومن هنا كان الصوت الشعوبي من أقوى الأصوات في شعر بشار، بدأه هادئاً، ثم استمر يعلو به حتى تحول إلى صخب وضجيج، يلاطم البيئة التي تصر على تحقير الموالي، وتعتنق النزعة العنصرية التي تجعل هؤلاء كما مهملات مؤخرات في المجتمع ويمكن القول بأن هذه النزعة ضاعفت من حدة بشار وإفراطه في هذا المجال فوقع في نفس الخطأ الذي ارتكبه العرب، وعالج الداء بداء آخر لا يقل عنه شناعة^(١).

وهذا الداء الذي عالج به بشار داءه هو احتقار العرب والازدراء عليهم في بعض شعره، وحتى نكون منصفين نقول إن هذا الاحتقار والازدراء لم يجرى إلا نتيجة لمواقف استدعت ذلك، أي أن الرجل لم يكن يشيع أشعاره في هجاء العرب، وإنما كان يقولها في مواقف لتكون حصنه الذي يتحصن به أمام مواقف اتخذها بعض العرب تجاهه، منها مثلاً:

(دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بدة الشعراء، فقال الأعرابي: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر، فقال: أمولى هو أم عربي؟ قالوا: بل مولى، فقال الأعرابي: ومال للموالي وللشعر! فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال: أتأذن لي يا أبا ثور؟

(١) محاضرات في الأدب العباسي ص ١٤١

قال: قال ماشئت ياأبا معاذ، فأنشأ بشار يقول:

خليلى لأنام على اقتسار
سأخبر فاخر الأعراب عنى
أحين كسيت بعد العرى خزاً
تفاخر ياابن راعيعة وراع
وكنيت إذا ظمئت إلى قراح
تريغ بخطبة كسر الموالى
وتغدو للقنافة تدريها
وتشبح الشمال للابسيها
مقامك بيننا دنسس علينا
وفخرك بين خنزير وكلب
ولا أبى على مولى وجار
وعنه حين تأذن بالفخار
ونادمت الكبار على العقار^(١)
بنى الأحرار حسبك من خسار^(٢)
شركت الكلب فى ولغ الإطار^(٣)
وينسيك المكارم صيد فار^(٤)
ولم تعقل بدراج الديار^(٥)
وترعى الضأن بالبلد القفار
فليتك غائب فى حر نار
على مثلى على الحدث الكبار

قال مجزأة للأعرابي: قبحك الله! أنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك^(٦).

هذا هو رد بشار على تهكم الأعرابي وسخريته، والواقع أن سؤال الأعرابي لا يخلو من سخف وسماجة، فبعد أن عرف أن الرجل شاعر، سأل أمولى هو أم عربى؟ وسؤاله يحمل

(٢) بنى الأحرار: يريد الفرس

(٤) تريغ: تريد

(١) الخنزير، العقار: الخمر

(٣) ولغ الإطار: شرب الماء الراكد حول البيت

(٥) تدريها: تنهز فرصة لصيدها، تعقل: تلحق، الدارج: القنفذ

(٦) الأغاني ص ١٠١٢ وما بعدها

اعترافاً بقدرة الموالى على قول الشعر وإجادتهم فيه وإكثارهم منه وكثرتهم فى ميدانه، ولو لم يكن كذلك لكان سؤاله على ذلك النحو: من أين الرجل؟ أو من أى العرب الشاعر؟ لكنه دون أن يدري اعترف بما استنكره بعد ذلك بقوله: ومال للموالى وللشعر.

يلقى أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز موافى على هذه القصيدة فيقول:

(ربما لو أمعنا النظر فى هذه القصيدة لأدركنا أنها ليست من قبيل ردود الأفعال، فالصور التى تلتصق فيها تكاد توحى بأنها نضجت على نار هادئة، وأن مبدعها يتهاى لإخراجها ويفتن فى رسمها قبل أن تحين الفرصة لإعلانها)^(١).

لكن القصة التى أوردها أبو الفرج تجعلنا نرى رأياً مخالفاً، ففى الرواية أن بشاراً غضب وسكت هنيهة، ولا يمكن أن يفسر سكوته على أنه كان يفكر أيقول القصيدة - لو سلمنا جدلاً بأنها معدة سلفاً - أم لايقولها، فليس مثل هذا السلوك يتبناه بشار، ولو كانت القصيدة معدة سلفاً لسارع بإلقائها دون انتظار شىء، فهذا يظهره فى صورة الشاعر السريع البديهة، المجيد الارتجال، كما أن الموقف لا يستدعى الانتظار، لقد أهين ومن حقه أن يرد على هذه الإهانة، إذن لم تكن فترة سكوته إلا للإعداد السريع الذى يكون الانفعال فيه وقوداً لاستطيع اللبالي الهادئة توفيره، كما أن مجزأة السدوسى قد وبنح ذلك الأعرابى الذى تسبب فى وجود هذه القصيدة فقال له: قبحك الله! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك، فقد اعتبر مجزأة القصيدة موجهة وليست مطلقة، وجهها بشار لذلك الأعرابى

(١) محاضرات فى الأدب العباسى

وأمثاله ممن يبخسون الموالى حقهم ويحاولون النيل من قدرهم، ويؤيد هذا الرأي كون
مجزأة نفسه عربياً فهل يهجو به بشار - إذا كانت القصيدة مطلقة - وقد جاءه قاصداً
مدحه؟!!

نستطيع إذن أن نقول دون مبالغة أو مغالاة أن الشعوبية لدى بشار كانت رد فعل للتفرقة
العنصرية التي سادت في ذلك العصر، كما أن انتشار الشعوبية في العصر العباسي يرى
الرجل من كراهيته الخاصة للعرب وحقده عليهم.

تهالكه على النساء

كان بشار رجلاً مكتمل الصحة الجسمية والنفسية، وكأى رجل كان ولعاً بالنساء،
والواقع أن ولع الرجال بالنساء أمر فطري غرس فيهم، يتفاوتون بالنسبة لهذا الأمر تبعاً
للصحة الجسمية والخبرات النفسية، هذا بالنسبة للاشتهاء، أما عن مدى إعلان هذا الاشتهاء
فهذه قضية خلقية أكثر منها بيولوجية، فهم يتفاوتون فيه بحسب التدين والنشأة البيئية
والخلقية.

والمرأة بالنسبة لبشار هي المرأة بالنسبة لغيره من رجال عصره على الأقل ولانقول بالنسبة
للرجال بشكل مطلق، هي كائن رقيق، حنون، عذب الحديث، لديه كل ما يحتاجه الرجل
على الأقل في لحظات خلوه التي يبحث فيها عن ذاته التي لا يجدها إلا عند امرأة.

ولقد وصف بشار بأنه ذو شهوانية مفرطة وتهالك زائد على النساء، يقول الدكتور عبد
العزیز الموائى (ولم يهرب بشار من مواجهة واقعه فكان لا يفتأ يعلل لتعلقه بالنساء على
الرغم من عماه «فالأذن تعشق قبل العين أحياناً» ودمعه يفيض غزيراً متحسراً على ما فاتته
بفقدته البصر، ومع ذلك لم يعدم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء.

وكاعب قالت لأثرابها
هل يمشق الإنسان من لا يرى
ياقوم ما أعجب هذا الضرير
فقلت والدمع بعيني غزير
إن تك عيني لا ترى وجهها
فإنها قد صورت في الضمير^(١)

لماذا نطالب الرجل بتقديم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء؟! هل هذا يحتاج إلى حجة، إن الحجة واضحة جلية لا تحتاج إلى أن يسأل عنها، ألا وهي أن بشاراً رجل، وهي امرأة، تعلق كل منهما بالآخر أمر يفرضه اختلافهما في الجنس.

ومسألة فقد بصره لا تخرجه من عداد البشر حتى يتعجب من عشقه لواحدة من البشر، وإذا كان الناس قد اعتادوا النظرة سبباً في حدوث العشق ففاقد البصر يملك البدائل لهذه النظرة، فالبصر حاسة واحدة، بينما الحواس البشرية خمسة، كما أن الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - ليس لوحة مسطحة لا يمكن إدراكها إلا بوساطة العين، فالإنسان كائن يتكلم ويتنفس ويتحرك ويمارس الكثير من الأنشطة التي لا تجعله مجرد ملامح يجهلها من لا يراها.

الإنسان شخصية تتحرك في إطار هذه الملامح فإذا كانت العينان لا تدركان هذه الملامح، فالشخصية تُدرك ببقية الحواس فتحب أو تكره تبعاً لميل المحب لهذه الشخصية أو ميله عنها، وأعتقد أن هذا هو التحليل المقنع لرد فعل بشار تجاه من لاموه في حبة «عبدة» التي يبدو أنها لم تكن جميلة فقال:

(١) محاضرات في الأدب العباسي ص ١٥٨

يزهدنى فى حب «عبدة» معشر	قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى	فبالقلب لبالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى	ولاتسمع الأذنان إلا بمن القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا	وألف بين العشق والعاشق الصب

المؤسف أن الناس قديماً وحديثاً استنكروا على بشار حبة للنساء، فلما أحب النساء، وصفوه بالشهوانية المفرطة التي تصل إلى الحيوانية، ثم راحوا يعللون هذا الإفراط فى الشهوة بعاهته - عماه - ويورد الأصمعى قولاً فى ذلك لم نسمع بأطرف ولا أفكه منه يقول:

(هما طرفان مذهب من أحدهما زاد فى الآخر)، وهو يقصد بالطرفين البصر والفحولة، وليس من تعليق على قوله سوى أن نسأله هذه الأسئلة: هل يمكن علاج العمى بالاختصاص؟ وهل يمكن علاج العجز الجنسى بفقء عين واحدة إذا كان عجزاً جزئياً، وبقوء العينين إذا كان العجز كلياً؟!

ويبدو أن أهل عصره قد أثقلوا عليه باستنكارهم المزعج لأن يكون عاشقاً حتى كثر شعره فى الرد عليهم وإفهامهم أن القلب محل العشق لا العين، يقول:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة	والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذى فقلت لهم	الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال أيضاً:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها	قلبى فأضحى به من حبها أثرُ
أنى ولم ترها تهذى فقلت لهم	إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصرُ

وقال:

إن سليماً والله يكلؤها
كأسُ السكر تزداده على السكرِ
بلَّغت عنها شكلاً فأعجبنى
والسمع يكفيك غيبة البصر

إن تشابه مضمون هذه الآيات الذي يقودنا إلى الإحساس بالتكرار راجع إلى تشابه المواقف أو تكرارها، وكان بشاراً يقول لهم: كُفُّو ويحكم إننى بشر، والعينان ليستا هما إنسانية الإنسان، وهو حينما يكرر لفظ «الأذن» و«القلب» يريد أن يذكر الناس ويفهمهم أنه مثلهم يسمع ويحس، فقيم إذن استنكارهم!

وهذا الاستنكار هو الذى لفت نظر معاصري بشار إلى سلوكه تجاه النساء فأصبح الرجل مراقباً مداناً من مجتمع لم يكن خيراً منه ولا أقل منه حرصاً على الاستمتاع بالمرأة، بل تجاوزوا ذلك واستمتعوا بالغلمان والرجال، لقد رأى ذلك المجتمع بشاراً بالمجهر حتى بدت تفاصيل حياته واضحة جلية أمامهم، وبدت مغامراته الطبيعية - كما وكيفاً بالنسبة لعصره - مكبرة مئات المرات، حتى كرهوه وتبرموا به، وصروره كما لم يصور بشر.

هجاؤه ومقتله

(إنى وجدت الهجاء المؤلم أخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللثام على المديح فليستعد للفقير وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى)^(١).

هكذا تكلم بشار بن برد حينما سئل عن ميله للهجاء وإكثاره منه، والواقع أن

(١) الأغاني ص ١٠٥٣

شخصية بشار كانت بطبيعتها وتكوينها النفسى ومكانها من المجتمع أميل إلى الهجاء منه أى غرض شعري آخر، فنفسه الرقيقة التى قوبلت بغلظة المجتمع وجفائه كان عليها أن تثار لنفسها بالهجاء أو على الأقل تجعل منه حصناً تحمى به من مجتمع كالذى وجدت فيه، كما أن اختلافه - بمولده فاقده البصر - عن العامة قد حال بينه وبين القيام بعمل يرتزق منه، فلم يكن أمامه من طريق إلا الشعر الذى أخذ له أحد أغراضه وهو المدح، فقد مدح الكثيرين ولم يعطوه شيئاً، فتوصل أخيراً إلى أن الهجاء هو أقصر السبل للشهرة والثراء معاً.

ويبدو أن بشاراً قد احترف الهجاء منذ صباه المبكر (فإذا هجا يوماً جاءوا إلى أبيه يشكونه فيضربه ضرباً شديداً فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحمه! فيقول: بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: يأبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل لهم: أليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قال بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار)^(١).

وهكذا ذاع صيت بشار من خلال هجائه الذى كان يؤرق ويرعب من يتوعددهم به، ولم يكن بشار يخشى فى هجائه شخصية كبيرة فى الدولة ولا شخصية ذات حسب ونسب

(١) الأغاني ص ١٠٥٤

عريضين. وقد هجا العباس بن محمد أخا الخليفة المنصور، وهجا الخليفة المهدي نفسه
ووزيره يعقوب بن داود يقول في هجاء العباس:

ظل اليسار على العباسي ممدود	وقلبه أبدأ في البخل معقود
إن الكريم ليخفى عنك عسرته	حتى ترراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل	زرر العيون عليها أوجه سود
إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم	تقدر على سعة لم يظهر الجود

وهكذا كان الهجاء يمثل الخطوة التالية الطبيعية بعد أن يمدح فيخيب أمله ولا يعطى، فكان هجاؤه بمثابة رجوع عن المدح الذي يرى أن ممدوحه - حين لم يعطه - لا يستحقه، وهكذا هجا العباس ورماه بالبخل بعد أن أثبت له الغنى حتى يظهر بخله واضحاً، ثم صورة الكريم الذي يخفى فقره عن الناس ويعطيهم حتى يظنوه غنياً، وهذه المفارقة تبرز الصورة وتزيد من تأثيرها في نفس السامع حتى يظهر في الصورة الرجل الغنى الذي لا يعطى والفقير الذي يعطى.

وقد مدح بشار الوزير يعقوب بن داود فلم يعطه شيئاً، فلما مازحه بشار عله يمنحه،
أغلظ له يعقوب القول، فقال يهجو:

لا يأسن فقير من غنى أبدأ	بعد الذي نال يعقوب بن داود
قد صار من بعد إشراف على تلف	وبعد غل على الزندين مشدود
أخاً لمهدي خلق الله كلهم	يوفى به فسوق أعناق الصناديد
لئن حسدت على مانلت من شرف	لقد عنيت زماناً غير محسود

بنى أمية هبوطال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفته الله بين الزق والعود

وقد (مدح بشار الخليفة المهدي فلم يعطه شيئاً، فقبل نادى أم يستجد شعرك، فقال: والله لقد قلت شعراً لو قيل في الدهر لم يخش صحنى أحد، ولكننا نكذب في القول فنكذب في الأمل)^(١)، وكان قد قال فيه:

إلى ملك من هاشم فرأى - ومن حمير بن الملك في العدد الدثر^(٢)

من المشتريين الحمد تندى من الندى يدها ويندى عارضاه من العطر

فألزمت حبلى حبل من لا تُغَبِّه عفاة الندى من حيث يدري ولا يدري

بنى لك عبد الله بيت خلافة نزلت بها بين الفراقد والنسر

وعندك عهد من وصاة محمد فرعت به الأملاك من ولد النضر^(٣)

فلما لم يعطه الخليفة مالا ولا كسوة ولا ناقة ضاق به ذرعاً وقال يهجوهُ:

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدبوق والصوبجان^(٤)

أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران

ومن خلال أعداء بشار - وما أكثرهم - وصل شعره هذا إلى الوزير يعقوب بن داود

(١) الأغاني ص ١٠٦٢

(٢) الدثر: الكثير

(٣) فرعت: علوت

(٤) الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان

الذى ناله من لسان بعار عار كبير، فسعى بهذا الشعر إلى المهدي (فدخل يعقوب على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجأك، فقال: بأى شيء، قال: بما لا ينطق به لساني ولا يتوهمه فكري، قال له: بحياتي إلا أنشدتني، فقال: والله لو خيرتني بين إنشادي إياه وضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي، فحلف عليه المهدي بالآيمان التي لا فسحة فيها أن يخبره، فقال: أما لفظاً فلا، ولكني أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشق غيظاً^(١)، ثم قصد المهدي البصرة وقبض على بشار وأمر بضربه بالسوط حتى الموت، فأخذ إلى سفينة وضرب سبعين سوطاً حتى مات فلقوا به في الماء، (فحملة الماء فأخرجه إلى دجلة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه)^(٢).

وهكذا مات بشار بن برد ضحية لمجتمع شمت بموته وقد تباشر الناس وهنا بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا.

ولم يمش في جنازة بشار إلا أمه سوداء سنديّة عجماء ماتفصح تصيح: واسيداه! واسيداه.

وهذه الأمة هي «عبدة» التي قال فيها:

قلوبهم فيها مخالفة قلبي

يعاتبنى في حب عبدة معشر

ويبدو أن قلبها فيه كان مخالفاً لقلوبهم، فهي الوحيدة التي استطاعت أن ترى وتلمس وتكلم وتصاحب بشاراً الإنسان.

(١) الأغاني ص ١٠٨٩

(٢) الأغاني ص ١٠٩٤

شعراء قتلهم شعرهم

حماد عجرد

هو واحد من كبار هجائي عصره، كانت بينه وبين بشار بن برد جولات كثيرة امتدت حتى بعد موت حماد، وهجاء حماد أفحش وأقذع كثيراً من هجاء بشار غير أن الهجاء عند بشار كان أرقى من الناحية الفنية وأكثر صوراً.

وعلى كثرة الهجاء في شعر حماد إلا أننا لانستطيع أن نعرض إلا النذر اليسير وذلك لفحشه وامتلائه بالألفاظ المستنكرة التي ياباها الذوق وتمجها الأذان، حتى بدا بشار أمامه شاعراً مهذباً عفيف اللفظ رقيق الصورة.

ويبدو أن حماداً كان أكثر اقتراباً من صفوة المجتمع العباسي آنئذ من بشار فكان بشار يسأله قضاء حاجاته عندهم، وحدث أن أبطأ حماد في إنجاز حاجة لبشار عند عقبة بن نافع، فغضب بشار وقال يهجوهُ:

مواعيد حماد سماء مخيلة	تكشف عن رعد ولكن ستبرق
إذا جئته يوماً أحال على غدٍ	كما وعد الكمون ما ليس يصدق ^(١)
وفى نافع عني جفاء وأنسى	لأطرق أحياناً وذو اللب يطرق
وللنقري قوم فلو كنت منهم	دعيت ولكن دوني الباب مغلق ^(٢)
أبا عمر خلفت خلفك حاجتي	وحاجة غيري بين عينيك تبرق

فغضب حماد من قول بشار وأنشد نافعاً الشعر ومنعه من صلة بشار، وهكذا بدأت

(١) الكمون: النبات المعروف، ويضرب المثل بمواعيد شره فيما لا يصدق

(٢) النقري: الدعوة الخاصة

الحرب مستعرة بينهما، وقد اتفقا على أن يكون بينهما وسيط ينقل لكل واحد شعر الآخر فيه، ونقل الرجل لبشار قول حماد:

إن تاه بشار عليكم فقد	أمكنت بشاراً من التيه
وذلك إذ سميته باسمه	ولم يكن حريسميه
فصار إنساناً بذكرى له	مايستنئى من بعد ذكره
ولم أهج بشاراً ولكتنى	هجوت نفسى بهجائيه
لم آت شيئاً قط فيما مضى	ولست فيما عشت آتية
أسوالى فى الناس احدوثة	من خطأ أخطأته فيه
فأصبح اليوم بسببى له	اعظم شأناً من مواليه

ومن سلوك حماد فى هجاء بشار يتضح أن حماداً كان ينقصه الكثير من الإنصاف والإلتزام بما يتطلبه شرف التنافس، وذلك لأنه كان يعتمد فى هجائه لبشار على عاهته، ولايبالى فى ذلك بالأزمة النفسية التى تصيبه، حتى يخرج الأمر بذلك عن كونه هجاءً فنياً إلى مجرد إثارة الضغائن وتفتيت نفس بشار الذى كان يتقبل هجاءه بروح أدبية عالية ولايجد حرجاً فى إبداء إعجابه ببعض أبياته. إلى أن قال حماد:

وأعشى قلوبان ما على قاذفه حد^(١)

(١) القلطان: القواد

شبيهه الوجه بالقرد	إذا ماعى القرد
ولو ينكه فى صلد	صفا لاتصدع الصلد ^(١)
دنى لم يرح يوماً	إلى مجد ولم يغد
ولم يحضر مع الحضار	فى خير ولم يبد
ولم يُخش له ذم	ولم يرج له سمد
هو الكلب إذا ما ما	ت لم يوجد له فقد

وحيثما سمع بشار البيت الثانى بكى، (فقليل له: أتبكى من هجاء حماد، قال: والله ما أبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه، فيصفنى ولا أصفه)^(٢).

من الطبيعى إذن أن يتحول الهجاء بينهما إلى غير ذلك حتى أصبح بشار يتتبع حماداً ويحاول أن يضيق عليه رزقه، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور قد اختار حماداً مؤدباً لولده، فكتب إليه بشار يقول:

يا أبى الففضل لانم	وقع الذئب فى الغنم
إن حماد عجرد	إن رأى غفلة هجم
إن خلا البيت ساعة	مجمع الميم بالقلم ^(٣)

(١) ينكه: يتنفس

(٢) الأغانى ص ٥٢٠٧

(٣) مجمع: أفسد، الميم: كناية عن الدبر، القلم: كناية عن القبل

فلما قرأ الربيع هذه الأبيات قال: (صيرني حماد دريئة الشعراء، أخرجوا عنى حماداً، فأخرج)^(١).

بين حماد وبشار تشابه كبير في عدة نقاط تتعلق بالشخصية والفن والسلوك والعقيدة والمصير. فخصية كل منهما هي شخصية الفنان الساخر الناقد على مجتمعه المتعرض لمثالب الناس وعيوبهم، حتى صار كل منهما مخشياً مهاباً، يتجنبه الناس أو يقتربون منه على استحياء وحذر.

الفن الذي جمع بينهما هو الشعر، وعلى الرغم من إبداع كل منهما في كافة أغراضه إلا أن الهجاء كان يمثل الكثرة الكاثرة في شعره، كما كان أيضاً يمثل شاعريته في أرقى مراتبها، وذلك لطبيعة الشخصية التي يناسبها الهجاء أكثر من الغزل أو المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض، كما تميز الهجاء عند كل منهما بالإنحاش والسلطة حتى أصبح شعرهم في ذلك الغرض حبيس كتب التراث، حيث لا تستطيع الدراسات الحديثة روايته إلا فيما ندر، حيث اختلفت الأذواق وتغيرت مدلولات الألفاظ، فصار اللفظ مستهجناً لا يمكن أن يرويه أديب في دراسة أو أستاذ جامعي في محاضرة، فلم يعد لهذا اللون من الشعر متنفس ومخرج إلى الناس إلا من خلال الكتب القديمة المحققة تحقيقاً حديثاً. ولا يمثل هذا الأمر عيباً في شعرهم - من الناحية الفنية - ولكنها مسألة طبيعية، فالناس يجتنبون اللفظ الخاص الذي تلوكة السنة العامة فيصبح بطبيعته لفضاً منبوذاً تتجنبه الألسن وتنصرف عنه الأذان.

(١) الأغاني ص ٥٢٠٧

والسلوك الذي يشتركان فيه هو المجون، فقد كان بشار ماجناً عابثاً، وقد بالغ مجتمعه في تصوير مجونه وخلاعه، وهو إن لم يكن كذلك فلن يكون إلا أقل من ذلك بقليل، وحماد فاق بشاراً خلاعة ومجوناً، وزاد عليه أنه كان لوطياً يستمتع بالغلما، وله شعر في التشبيب بـغلام يسمى «أبو بشر» يقول فيه:

أخى كف عن لومي فإنك لاتدرى	بما فعل الحب المبرح في صدري
أخى أنت تلقاني وقلبك فارغ	وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دائي ليس عندي دواؤه	ولكن دوائي عند قلب أبي بشر
دوائي ودائي عند من لو رأته	يقلب عينيه لأقصررت عن زجري
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى	لأقصررت عن لومي وأطبت في عذري
ولكن بلائي منك أنك ناصح	وأنك لاتندري بأنك تـدري

كما تروى عن حماد قصص كثيرة تثبت عليه ذلك منها ما يرويه أبو الفرج قال:

(حدثني أبو يعقوب الخزيمي يقول: كنت في مجلس فيه حماد عجرد ومعنا غلام أمرد، فوضع حماد عينه عليه، وعلى الموضع الذي ينام عليه، فلما كان الليل اختلفت مواضع نومنا فقامت فنمت في موضع الغلام، ودب حماد إلى يظنني الغلام، فلما أحسست به أخذت يده فوضعتها على عيني العوراء لأعلمه أني أبو يعقوب، فنثر يده ومضى في شأنه وهو يقول: «وفديناه بذبح عظيم»^(١)).

(١) الأغاني ص ٥٢١٧

هذا بالإضافة إلى أن كل منهما كان سكيراً عرييداً. والعقيدة عندهم مضطربة
والإحساس الديني يكاد يكون منعدماً، وقد اتهم بشار بالزندقة وجعلت ستاراً لقتله، ولم
يكن حماد زنديقاً عادياً وإنما كان إماماً للزندقة، وله شعر كانوا يتلونونه في صلاتهم، وكل
من بشار وحماد كان يعادى واحداً من العلماء الأجلاء في ذلك العصر ويهجوهم، فقد هجا
بشار واصل بن عطاء بقوله:

مالي أشايح غزالاً لسه عنق
كنفتق الدوّان ولى وإن مثلاً^(١)
عنق الزرافة مابالى وبالكم
تكفرون رجالاً كفروا رجالاً

(فلما تتابع على واصل منه مايشهد على إلحاده خطب به واصل، وكان الثغ على الرءاء،
فكان يجتنبها في كلامه، فقال: أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المد المكنى بأبى معاذ من
يقتله؟ أما والله لو أن الغيلة سبجية من سجايا الغالية لدستت إليه من يبيع بطنه في جوف
منزله أو في حلقه)^(٢).

وهجا حماد الإمام أبا حنيفة النعمان، وقد كانا صديقين ثم نسك أبو حنيفة ودرس الفقه
وتعلمه حتى بلغ فيه مابلغ، ويبدو أنه حاول مع حماد بعض المحاولات لإصلاحه ورده عما
هو عليه، لكن حماداً أصر على ما هو فيه فرفضه أبو حنيفة وذكره في مجالسه يحذر الناس
منه ومن صحبته، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وظل أبو حنيفة يذكره بذلك
حتى قال فيه حماد هذه الأبيات:

(١) غزالاً: يقصد واصلًا لكثرة جلوسه في السوق، النفتق: ذكر النعام، الدو: الغلاة
(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٩٢.

إن كان نسكك لا يثـ	م بغير شتى وانتقاصى
أو لم تكن إلا به	ترجو النجاة من القصاص
فأعد وقم بى كيف شئـ	ت من الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتى	وأنا المقيم على المعاصى
أيام تأخذها وتمـ	طى فى أباريق الرصاص

بعد أن سمع الإمام أبو حنيفة هذه الأبيات أمسك عن ذكر حماد خوفاً من لسانه الذى لا يتورع عن إلصاق أى تهمة مهما عظمت بالرجل الفقيه.

وقد بلغ منهما مبلغاً عظيماً فى الزندقة حتى فضلاً شعريهما على القرآن، فقد سمع بشار جارية تغنى شعره الذى يقول فيه::

إن الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيتـ
ومخضب رخص البنا	ن بكى على وما بكيتـ
يامنظراً حسناً رأيتـ	ت بوجه جارية فديتـ
بعثت إلى تسومنى	ثوب الشباب وقد طويتـ

فطرب بشار وقال: هى والله أحسن من سورة الحشر^(١).

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٠٥٧

كما نسب لحماذ خبر كهذا، فقالوا (أن حماذ عجرد كان ينشد شعراً، ورجل بإزائه يقرأ القرآن، وقد اجتمع الناس عليه، فقال حماذ: علام اجتمعوا؟ فوالله لما أقول أحسن مما يقول)^(١).

وكما كان بشار لا يقرب الصلاة وكان أصحابه يضعون التراب حول ثوبه ليعلموا أيقوم أم يبقى في مكانه فلما يعودون يجدون التراب كما هو فيعلمون أنه لم يقم، كذلك كان حماذ لا يصلى بل ويستثقل الإطالة فيها على الرغم من أن الذي يصلى غيره، وقد هجا رجلاً يسمى سهم بن عبد الحميد الذي كان يصلى الضحى وهم يتنظرونه حتى يبدأوا الغداء، فلما أطال سهم قال حماذ:

صلاتك للرحمن أم لي تسجد

ألا أيها القانت المتهدج

لن غير مابر تقوم وتعمد

أما والذي نادى من الطور عبده

(فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادراً، فقال له: قبحك الله يا زنديق، فعلت بي هذا كله لشيرهك في تقديم أكل وتأخيرها! هاتوا طعامكم فاطعموا لا أطمعه الله تعالى، فقدمت المائدة)^(٢).

أما عن المصير المشترك الذي صار إليه كل منهما، فهو القتل بسبب الشعر، وقد رأينا كيف قتل بشار بسبب هجائه، وسرى كيف قتل حماذ بسبب تشبيهه بامرأة تسمى زينب بنت سليمان.

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٥٢٠٥

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٥٢١٣

كان محمد بن أبي العباس السفاح يهوى زينب فخطبها فلم يزوجه، وكان حماد صديقه ونديمه، فقال له محمد: قل فيها شعراً، فقال حماد على لسان محمد:

زينب ما ذنبى وماذا الذى
غضبتُمُ منه ولم تغضبوا
والله ما أعرف لى عندكم
ذنباً فسفيم الهجر يا زينب
إن كنت قد أغضبتكم ضلّة
فاستعتبوني إننى أعتب
عودوا على جهلى بأحلامكم
إنسى وإن لم أذنب المذنب

وقال أيضاً على لسان محمد بن أبي العباس السفاح:

ألا من لقلب مستهام معذب
بحب غزال فى الحجال مربب
يراه فلا يستطيع رداً لطرفه
إليه حذار الكاشح المترقب
ولولا ملك نافذ فيه حكمه
لأدى وصلاً ذاهباً كل مذهب

فلما بلغ ذلك الشعر مسامع محمد بن سليمان - أخى زينب - نذر دمه وأصر على قتله لكنه لم يستطع لمكانة حماد من محمد بن أبي العباس، فلما مات بن أبي العباس جد ابن سليمان فى طلبه، فخاف حماد ولم يجد من يلوذ به ويستجير بحماه، فاستجار بقبر سليمان بن على - أبى محمد بن سليمان - وراح يمدحه ويمدح سليمان، فقال:

من مقر بالذنب لم يوجب اللـ
سه عليه بسىء إقراراً
ليس إلا بفضل حلمك يفتـ
ربلاء وما يعمد اغتراراً^(١)

(١) يغتر: ينكشف ويزول

يا ابن بنت النبي أحمد لا أجمع	ل إلا إليك منك الفرار
غير أنى جعلت قبر أبى أيو	ب لى من حوادث الدهر جارا
وحسرى من استجار بذلك الـ	قبر أن يأمن الردى والمثارا
لم أجد لى من العباد مجيرا	فاستجرت التراب والأحجارا
لست أعتاض منكم فى ابتغاء العـ	سز قحطان كلها ونزارا
فأنا اليوم جار من ليس فى الأـ	ض مجير أعز منه جوارا
يا ابن بنت النبي ياخير من حطـ	ت إليه الموازب الأكوار ^(١)
إن أكن مذنباً فأنت ابن من كا	ن لمن كان مذنباً غفارا
فاعف عني فقد قدرت وخير الـ	عفو ماقلت كن فكان اقتدارا
لو يطيل الأعمار جار لعز	كان جارى بطول الأعمارا

لكن محمد بن سليمان لم يرض بهذا وقال: والله لأبلىن قبر أبى من دمه، فلم يجد حماد بدأ من الفرار إلى بغداد حيث يمكنه أن يستجير بجعفر المنصور الذى أجاره فعلاً واشترط لذلك أن يهجو محمداً بن سليمان فقال فيه حماد:

قل لوجه الخصى ذى العار إنى	سوف أهدى لزئيب الأشعارا
----------------------------	-------------------------

(١) العوازب: الإبل، الأكوار: جمع كور وهو الرحل

قد لعمري فررت من شدة الخو
وظننت القبور تمنع جارا
كنت عند استجارتى بأبى أيد
لم يجرنى ولم أجد فيه حظاً
ف وأنكرت صاحبي نهارة
فاستجرت التراب والأحجارا
سوب أبغى ضلالة وخسارا
أضرم الله ذلك القبر نارا

وقال أيضاً في هجائه:

يا ابن سليمان يا محمد يا
إن فخرت هاشم بمكرمة
لؤمك باد لمن يراك إذا
ليتك إذ كنت ضيقاً نكراً
من يشتري المكرمات بالسمن
فخرت بالشحم منك وبالعكن^(١)
أقبلت في العارضين والذقن^(٢)
لم تدع من هاشم ولم تكن^(٣)
لكنما العيب منك في البدن
جداك جدان لم تعب بهما

فلما بلغ محمداً قوله قال: (والله لا يفلتنى أبداً، وإنما يزداد حنقه بلسانه، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً). وظل ابن سليمان يطلب حماداً، وحماد ينتقل من مكان إلى مكان يبحث عن مأوى وملاذ حتى أدركه بن سليمان في منطقة تسمى الأهواز، فأرسل مولى له فظفر به فقتله.

(١) العكن: البطن المتدلى من السمرة

(٢) العارضان: الخدان

(٣) نكر: خبيث

شعراء قتلهم شعرهم

امرو القيس

سأل امرؤ القيس زوجته أم جندب عما يكره النساء منه، فقالت: يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، وسأل أخرى نفس السؤال فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب، فقال: أنت صدقتني، إن أهلي أرضعونني بلبن كلبة.

هكذا قدر للأمير الشريف، والشاعر المرفه الحس أن يواجه واقعاً مرأياً يعز على مثله أن يتحملة، فما حاجة النساء لشاعر فصيح، رقيق العبارة، جزل اللفظ، دقيق التصوير، إذا كان في الفراش ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، أو إذا كان يعرق فيفوح بريح كلب.

وهكذا أصبح الأمير يشعر بانحطاط نفسه أمام المرأة التي يشتهيها ولا يجد سبيلاً للوصول إلى إعجابها، ويستمتع بها لا يستطيع أن يتمتع بها، فسرعان ما لجأ إلى الشعر الذي يستطيع من خلاله أن ينسج الحكايات والمغامرات التي يكون فيها الرجل الذي لا يستطيع أن يكونه في الواقع، فهو في شعره رجلٌ فحل، تشتهي النسوة، ويرحبن بمقدمه في أي وقت، غير مباليات بالأهل ووجودهم في سامرهم، وربما كان فيهم أزواجهن.

يقول في إحدى قصائده:

سمو حباب الماء حالاً على حال^(١)

سموت إليها بعدما نام أهلها

ألسنت ترى السمار والناس أحوالي

فقلت: سبناك الله إنك فاضحي

(١) حباب الماء: قطراته

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي	فقلت بين الله أبرح قاعداً
لناموا فما إن من حديث ولاصال ^(١)	حلفت لها بالله حلقة فاجر
هصرت بغصن ذي شماريخ ميال ^(٢)	فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
ورضت فذللت صعبة أي إذلال	وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
عليه القتام، سىء الظسن والبال ^(٣)	فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلمها
ليقتلنى والمرء ليس بقتال ^(٤)	يغط غطيط البكر شد خناقه
ومسنونة زرق كأياب أغوال ^(٥)	أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
وليس بذى سيف وليس بنبال	وليس بذى رمح فيطمئنى به
كما شغف المهنوءة الرجل الطالى ^(٦)	أيقتلنى وقد شغفت فؤادها
بأن الفتى يهذى وليس بفعال	وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها

من خلال هذه الأبيات حاول امرؤ القيس أن يصور نفسه عاشقاً استبد به الشوق حتى هانت أمامه كل المخاطر التي تعترض سبيله إلى محبوبته، حتى سما إليها فى خفة ورشاقة كقطرات الماء التي يعلو بعضها بعضاً فى هدوء ويسر، ثم لما وصل إليها ووجدها مضطربة من أثر المفاجأة اخذ يقسم لها أنه لن يذهب حتى لو قتلوه ومثلوا به، فلا فائدة إذن من الاضطرابات أمام عاشقٍ مُصرٍ على قضاء لحظات الوصل العذبة، ولأمانع من أن يحلف لها

(١) صال: مصطل بالنار، يستدفىء

(٢) هصرت: جذبت، الغصن أراد به جسمها، ذى شماريخ: يقصد شعرها

(٣) القتام: الغبار (٤) يغط: يردد صوتاً كصوت المختق، البكر: الجمل الصعب ترويضه

(٥) المشرفى: السيف، الأغوال: جمع غول (٦) المهنوءة: المطلية بالقطران

كاذباً أن الناس قد ناموا ولم يعد هناك من يتحدث أو يجلس أمام النار طالباً دفاً لهيبها، فلما اطمأنت بدأت تبادلته الحديث الحلو الهادئ، وقد انقادت له بعد صعوبة، وسهلت بعد تمنع، فانتزع هواها، وخلب فؤادها، فأحبهه وكرهت زوجها الذي عاد مغبراً كاسف البال، فلما عرف ما كان من أمرهما، اختنق غيظاً كجمل فتى شد من خناقه بحبل، يريد قتله ولكن ليس في وسعه أن يقتل من لا يفارق سيفه، مسنون السهام، محدد الأزجة، صافية كأنها أنياب غيلان، وهو لا يملك رمحاً يطعن ولا سيفاً يشهر، ولا نبأ ترمى، وحتى لو قتله فأزاحه من طريقه لن يسعد معها، فقد ملك شاعرها شغاف قلبها، كما تستلذ الناقة المطلية بالقطران، وقد علمت سلمى أن زوجها ثرثار قوال يتحدث كثيراً ولا يعمل شيئاً.

وفي معلقته التي بلغت ثمانية وسبعين بيتاً كان من الطبيعي أن نرى المرأة تتسلل إلى أبياتها من خلال الوصف تارة ومن خلال دورها كبطلة في مغامرة عاطفية تارة أخرى، يقول:

ويضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجل ^(١)
تخطيت أهوالاً إليها ومعشراً	على حراساً لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا في السماء تعرضت	تعرض أثناء الوشاح المفصل ^(٢)
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى الستر إلا لبسة المتفضل ^(٣)
فقلت: يمين الله مالك حيلة	وما إن أرى عنك العماية تنجلي ^(٤)

(١) بيضة: أراد بها المرأة لصفائها ورقتها

(٢) الوشاح: خرز ملون، المفصل: الذي فصل بالزبرجد

(٣) نضت: نزعت، المتفضل: الذي يلبس ثوباً أحداً

(٤) العماية: الاستهتار

خرجت بها تمشى تجر وراءنا	على أثرينا ذيل مرط مرحل ^(١)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى	بنا بطن حقف ذى ركان عقنقل ^(٢)
إذا التفتت نحوى تضسوع ريحها	نسيم الصبا جاءت برريا القرنفل ^(٣)
هصرت بفودى رأسها فتمايلت	على هضيم الكشح ريا المخلخل ^(٤)

فى هذه المغامرة (يرسم فى صورة متكاملة كيف اقتحم الأهوال إليها، وتخطى القوم برغم يقظة هؤلاء، ومنعة بيتها، وتربص أهلها به، وإصرارهم على قتله لو استطاعوا أن يفعلوه خفية، وماهم بقادرين لحسبه ونباهته، وقد بلغ بيتها والثريا تتوسط السماء، تلمع فيها بين النجوم لمعان لؤلؤة تتوسط خرزاً فى ثوب موسى. وكانت صاحبتة تأخذ أهبتها لتنام، خلعت ثياب اليوم وارتدت ثوب النوم، فلما فاجأها جرى بينهما حديث وحوار، أقسمت له أنها استنفدت جهدها فى دفعه، فلم يبق لها حيلة، وأنه مفرق فى استهتاره، فلا سبيل له أن يتعقل، ومابقى أمامها إلا أن تطيعه، فخرجت معه إلى مكان قصى من الحى حيث لا تراهما العيون، وقد ارتدت ثوباً طويلاً تجر وراءهما ذيله، فيمحو كل أثر تخلفه أقدامهما، وقد تطيبت بمسك ينتشر منها قوياً، كما لو كان نسيماً رقيقاً مر بديار عامرة بزهور القرنفل فإذا داعبها مالت عليه دقيقة الخصر ريانة الساق)^(٥).

وحتى تكتمل مظاهر الفحولة لم يكن هناك بدء من تصوير مغامرة يكون فيها امرؤ القيس مرغوباً فيه، مسعياً إليه، تترك لأجله عظام الأمور، وحبذا لو كانت معشوقته هذه أو عاشقته

(١) المرط: ثوب من الحرير أو الصوف يؤتزر بها، مرحل: موسى
(٢) الحقف: من الرمل أى المعوج، ركام: أى بعضه فوق بعض، عقنقل: منعقد متداخل
(٣) تضسوع: انتشر وتحرك، ريا: رائحة (٤) هصر: جذب، فودا الرأس: جانباه، الهضيم: الضامر، ريا: ممتلئة
(٥) امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكى ط. دار المعارف ص ١٨٩

كما أراد تصويرها أمماً لرضيع، ليتوزع قلبها بين رضيعها وحبيبها، فتقوم المفاضلة بينهما، ويقوم الصراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة المرأة المحبة، فهي تخشى إذا تخلفت عن حبيبها أن يسىء بها الظن ويسؤوها إذا جاءت أن تدع وليدها يبكى، وحتى يأخذ العدل مجراه قبل الحكم في ذلك الصراع كان لابد من تمثيل حضوره عندها برسول منه إليها يدعم موقفه عندها، حتى يكو الاختيار بين حاضرين، لا بين حاضر وغائب.

ثم لما انحسم الصراع لصالح الحبيب، جاءت تمشى بحذر يشوبه القلق وكأنها تقطف الخطأ من الأرض كأنها السكران يخشى أن يدركه الناس في الطريق، فلما وصلت إليه لم يجد في صبره مساحة لحديثها فراحت تكلمه وهو يجرداها من ثيابها، وتقول له: لو أن شيئاً آخر طرأ في هذه الساعة من الليل لما أعرته أى اهتمام، أما أنت فلا أستطيع لك دعماً وقضياً الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعاً، تسعده وتدفع عنه الهم، ويمتعها وينأى بها عن الملل، ثم انقطع بينهما عادى الحديث وحل مكانه آخر أخفت صوتاً، وأعذب مضى، ولفتها الستائر، فإذا أخذتها هزة النشوة، أمسكت بذراعيه تدنيه منها، فإذا بهما ذراعان قويان لرجل مقدم على الأهوال. يقول امرؤ القيس:

تراقب منظوم التمايم مرضعاً^(١)

بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعاً^(٢)

حذاراً عليها أن تقوم فتسمعاً

ومنهن سوفى الخود بللهالندى

يعمز عليها ريتى ويسوؤها

بمئت إليها والنجوم طوالسع

(١) الخود: المرأة الحبية

(٢) يتضوع: يشتد بكاهه

فقامت قطوف المشى هائبة السرى	يدافع ركنها كواعب أربعا ^(١)
يزجنيها مشي النزيف وقد جرى	صباب الكرى فى مخه فتقطعا ^(٢)
تقول وقد جردتها من ثيابها	كما رعت مكحول المدامع أتلعا ^(٣)
أجدك لو شىء أتنا رسوله	سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
فبتنا نصد الوحش عنا كأننا	قتيلان لم يعرف لنا الناس مصرعا ^(٤)
تجافى عن المائور بيني وبينها	وتدنى عليها السابرى المضلعا ^(٥)
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت	بمنكب مقدام على الهول أروعا ^(٦)

هذا بعض من شعر امرىء القيس فى المرأة، وديوانه يضم العديد من النساء بمقدار مغامراته معهن، وبتعدد المغامرات وتعدد طبائع النساء، (نرى فاطمة المتدلة المعزوزة، وليلى الناسية الذاكرة، وعنيزة المتمنعة المستجيبة، وأسماء المتحولة المتقلبة، وسلمى الغرة النافرة، وماوية الخبيثة الماكرة، مهر اللعوب المستجيبة، ورقاش البخيلة الباذلة، ونساء كثيرات لا يذكر أسماءهن، فيهن الساقطة المحتجبة، والساذجة العاقلة، والخائفة المتكبرة، ومن تقصر حبها على رجل، ومن تهب نفسها للناس جميعا)^(٧).

ومنهن من لها قوم يغارون عليها، ومن لا يمثل زوجها ثقلاً فى البادية من الرقيق أو عامة الناس، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها زناً، وهناك المرأة الأم، والشابة الفتية، والصبية

(١) قطوف الخطا: مشيها متقارب، ركنها: جنبها

(٢) يزجى: يسوق، النزيف: السكران، صباب الكرى: بقية النعاس

(٣) مكحول المدامع: ولد الظبية، أتلغ: طويل العنق

(٤) الوحش: الهم وربما قصد الوحشة

(٥) السابرى: نوع الثياب

(٦) هزة الروع: ارتعاده النشوة

(٧) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

المراهقة، والحررة والجارية، حتى بائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلج دارها، فديوانه إذن يصلح أن يكون مرجعاً لدراسة الحالة الاجتماعية للمرأة فى العصر الجاهلى، ذلك فضلاً عن دراسة الغزل وطبيعته فى ذلك العصر فهذه من الدراسات الموجودة بالفعل.

يطرح أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى سؤالاً عن طبيعة شعر امرىء القيس فى المرأة فيقول: (لم شغل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة فوصفها ذكريات وبدناً، وصورها حرة وبغياً، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً؟) (٧).

ثم يقدم لسؤاله جواباً فيقول:

(الجواب يكمن فى نشأته العائلية، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمه من قلب أبيه، لكن واقع الحال ينبىء - إذا أخذنا برواية أنها أخت يزيد بن كبشة - وأنه كان زواجاً قبلياً، ثمليه صلة القرابة ودواعيها دون أن ينظر فيه إلى عماد أى زواج ناجح، من توافق فى العواطف والميول، وامرؤ القيس يصمت عن أمه تماماً، لا يعرض لها ولا مرة واحدة، فهل يسوغ لى هذا الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلاً صغيراً، فلم يبق لها فى ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده؟ بلى ذلك ماأراه، من غير أم أمضى امرؤ القيس طفولته وشب يتيماً ضائعاً، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه، وقاسٍ معه فى تربيته وحسابه، وفى البيت يفتقد العاطفة الودود، فشب وقلبه صحراء مجدبة يغمرها الخوف والوحدة، وشيء يمكن أن يملأ قلب الرجل الخالى، هو قلب المرأة وفى الوقت نفسه

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

هى أمضى سلاح لقتل الخوف، واجتثاث الوحدة، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة، وفتنتها تتمثل فى كمالها خلقة وتصويراً. وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسى وحده فى جمال حبيباته.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر، هو أنه لم تكن هناك فرصة له - وللغيره - لكى يلقى الحبيبة دوماً، فى غير لحظات اللهو العاجلة، ليكتشف الجانب الخفى من فضائلها، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لا يعرف الحجاب، ولا يمنع الاختلاط، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس نده، ومن المرأة سميرة بنت جنسها، فكان ثم فصل بين الجنسين تقليداً متعارفاً، فلا يرى الرجل من جمال المرأة إلا جانبه الخارجى، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من فضائلها النفسية، لأنه جوهر وتعبير، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دماً وأعصاباً ومادة، والحب الحسى، كالعشق العدرى، ينبعث عن عاطفة ويعبر عن شعور^(١).

قبل أن نسجل تحفظنا على هذا الجواب نسجل أولاً تحفظنا على السؤال، فشعر امرئ القيس فى المرأة لم يخل تماماً من تصوير نفسية المرأة، وإلا فمن أين عرفنا أن فاطمة متدللة معزوزة، وليلى ناسية ناكرة، وعنيزة متمنعة مستجيبة، وأسماء متحولة متقلبة، وسلمى غرة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة، لعوب مستجيبة، ورقاش معترضة باذلة، وكل هذه أسماء لنساء ذكرهن الرجل فى شعره وحكى مغامراته معهن التى من خلالها استطعنا أن نقف على الوصف النفسى لهؤلاء النسوة، لكن الواقع هو قلة ذلك الوصف النفسى بالنسبة لجملة شعره.

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

أما عن سلوكه الماجن والذي أرجعه أستاذنا إلى نشأته العائلية وخاصة فقده لأمه، فنحن نرى ذلك ظناً لا يرقى إلى الواقع، فلم تثبت المصادر أن امرأ القيس نشأ يتيماً، ولو كان لهذا الأمر أهمية لما أغفله مؤرخو الأدب القدماء، فإما أنه لم ينشأ يتيماً لذلك لم يذكر في سيرته يتمه، وإما أنه نشأ يتيماً فعلاً وأغفل المؤرخون ذلك لعدم أهميته في التأثير على سلوكه وشعره، فالعرب في هذه الفترة من الزمن كانوا يرسلون أطفالهم الرضع إلى البوادي حيث يقضون فترة طفولتهم الأولى، عند المراضع فينشأون على خشونة البادية فيشتد عودهم ويخشوشن طبعمهم في رمال الصحراء الملتهبة وتحت شمسها اليقظة، كما تتاح لهم فرصة تلقى اللغة العربية من ألسنة أهل البادية وهم أفصح من أهل الحضر فينشأ الطفل طلق اللسان فصيحاً، ثم يعود إلى أهله بعد تلك الفترة التي غالباً ما تكون نهاية اللهو والعبث الصبباني، فيعهد له أبوه بعمل يسير كرعى الغنم حيث يقضى نهاره في عمله ويقضى بعض ليله مع رفاقه ممن هم في مثل سنه وغالباً يعملون نفس عمله، أو مع أبيه في مجالس الرجال، وبذلك تكون علاقته بأمه علاقة محدودة، فلا يرثى لصبي ماتت أمه أو فارقت أباه مطلقاً عائداً إلى مضارب قبيلها، كما أن العرب تعرف اليتيم بموت أبيه قبل أن يبلغ الحلم، لا بموت أمه، أما عدم ذكر امرئ القيس لأمه في شعره فلا يسوغ افتراض أنه افتقدها صغيراً، وإلا اعتبرنا الكثرة الكاثرة من شعراء العربية أيتاماً لنفس السبب.

لعل هذا السلوك راجع إلى كراهية النساء له وعدم رغبتهن فيه، فالناس أمام ذلك الأمر ينقسمون قسمين، فمنهم من يجتنب النساء ويعاديهن ويعلل ذلك بعله يرتضيها، ومنهم من يعتبر المسألة شخصية ويرى الخلل في كل امرأة يقابلها فيظل يبحث عن امرأة بريئة من هذا الخلل، فكان امرؤ القيس باحثاً عن امرأة تحبه، لانقول تسعى إليه ولكن على الأقل تتقبل

سعيه إليها، كان يبحث عن امرأة لاترى صدره ثقيلاً ولاعجزه خفيفاً ولاإراقتة سريعة
ولاإفاقتة بطيئة، كان يبحث عن امرأة تعانقه فلا تشم له رائحة كلب، كان يبحث عن امرأة
تضمد الجرح الذي نكأته أم جندب بوصفها^(١) الذي أدمى رجولته وهوى بكبريائه إلى
الحضيض.

في غمرة اللهو والعبث قدر على الشاعر الرقيق أن يتحمل وحده ودون إخوته عبء
الأخذ بثأر أبيه الذي قتله قبيلة أسد، ولقد جاءه خبر مقتل أبيه وهو في قرية يقال لها
«دمون» في حضرموت، وكان يجالس نديماً له يشربان الخمر ويلعبان النرد، فلما أعلمه
الناعي الخبر لم يلتفت إلى قوله واستمر في اللعب حتى لايفسد على صاحبه المجلس، فلما
انتهى من اللعب التفت إلى الناعي وقال: «ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لاصحو اليوم
ولاسكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر، ثم قال:

خليلى لافى اليوم مصحى لشارب ولافى غدٍ إذ ذاك ماكان يشرب

ثم شرب سبعا فلما صحا آلى ألا يأكل لحماً ويشرب خمراً، ولايدهن بدهن، ولايصيب
امرأة، ولايغسل رأسه من جنابة، حتى يدرك بثأره^(٢).

ولكن كيف يدرك ثأره وثأره عند قبيلة عظيمة لااستهان بها عدداً وعتاداً، وليس عند فرد
يقتله وينتهى الأمر، إلى جانب أن كندة - قبيلة امرىء القيس - كانت تعتمد على أصدقاء
في الجنوب تلاشى سلطانهم، كما أن أعداءهم في الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء، كما

(١) انظر أول صفحة من هذا الفصل

(٢) الأغاني ص ٣٢٠٨

أن العصبية الكندية قد اندثرت وتلاشت تقريباً، فكيف يدرك شاعرنا ثأره ولا سبيل إلى حلٍ آخر؟!

ولقد «قدم على امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان، فيهم المهاجر بن خدّاش بن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان في بني أسد مقيماً وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور ورداً وإصراراً، يعرف ذلك له من كان محيطاً بأكناف بلده من العرب، فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقديم باكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، فسألوا من حضر من رجال كندة فقال: هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من السلاح والعدة، فقالوا: اللهم غفراً، إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به ما فرط، فليبلغ ذلك عنا، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامه سوداء، وكانت العرب لاتعتم بالسواء إلا في الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة قائلاً: إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدته أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب، لك من سؤدد منصبك وشرف أعرافك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل لأذى عمت رؤيته نزاراً واليمن، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعمّة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامنا على مثله، ولقد ينأه منه، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات

حسامك.. أو فداء بما يروح من بنى أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداءً رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء، وإما أن توادعنا حتى تضع الجوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات، فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإنى لن أعتاض به جملاً ولاناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتهما الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون سبياً لعطبها وستعرفو طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنه علقاً»^(١).

وانصرف بنو أسد مثقلة عواتقهم بهذا الجواب، وانطلق امرؤ القيس في الجزيرة باحثاً عن نصير يعينه على الأخذ بثأره واسترداد ملك أبيه الضائع وقد لجأ أول ما لجأ إلى قبيلتين من أقوى القبائل العربية هما بكر وتغلب وقد عاونوه وأمدوه بالجند والسلاح، فانطلق طالباً بنى أسد الذين رحلوا حين علموا بمقدمه فأصاب قوماً من بنى كنانة وهو يظن أنهم بنو أسد ووضع السيف فيهم وهو يصيح: يالثرارات الملك، يالثرارات الهمام، فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة، فقالت: أبيت اللعن، لسنا لك بثأر، نحن من كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، فإن القوم قد ساروا بالأمس، ثم تبع بنى أسد فأدركهم وقتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، ثم حال الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما جاء الصباح أراد امرؤ القيس أن يعيد الكرة عليهم لكن بكرأ وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: قد أصبت ثأرك، قال: ما فعلت ولأصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أجدأ، قالوا: بلى، ولكنك رجل شثوم،

(١) الأغاني ص ٣٢٢٣

وانصرفوا عنه وتركوه.

ثم خرج امرؤ القيس من فوره إلى اليمن فاستنصر قبيلة تسمى «أزد شنوءة» فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا، فنزل بقريب له يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميرى فاستنصره واستمده على بنى أسد، فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم، وخلفه رجل يقال له قرمل بن الحميم، فأخذ يسوف امرأ القيس ويطول عليه حتى همَّ بالانصراف عنه وقال فيه:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لاندعى عبداً لقرمل

فلما سمع ذلك منه أنفذ له الجيش، واستأجر من قبائل العرب رجالاً ثم سار بهم إلى بنى أسد، ومر بموضع فى جنوب مكة يسمى «تباله» وبه صنم للعرب تعظمه، يسمونه «ذو الخلصة» واستسقم عنده بقداح ثلاث هى الأمر والناهى والمتربص، فأجالها فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى ثم أجالها ثالثة فخرج الناهى للمرة للأخيرة، فاغتاظ امرؤ القيس، وجمع القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: «لو كان أبوك الذى قتل ماعقتى»^(١).

ثم خرج فظفر بينى أسد، فلم يستقسم عند ذى الخلصة بعدها حتى جاء الإسلام فهدم هذا الصنم.

ولعداوة قديمة بين المنذر ملك الحيرة وبين كندة خشى المنذر أن ينجح امرؤ القيس فى أن يعيد لكندة سطوتها، فوجه إليه الجيوش، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢١٣

فسرحهم في طلبه، وتفرقت عن امرئ القيس حمير ومن كان معه فلم تعد له بهم طاقة فنجا في جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة، ومعه الدروع التي كان أجداده يتوارثونها، فأرسل المنذر إلى الحارث يتوعده بالحرب إن لم يسلم له الكنديين اللاتيين به، فأسلمهم إليه، فقتل المنذر منهم إثني عشر فتى من امرائهم، ولم ينس امرؤ القيس لبني حنظلة موقفهم منه، فاتخذهم مثلاً للغدر والخذلان والخبث والشر، فكان إذا هجا قوماً شبههم ببني حنظلة وإذا مدح قوماً ارتفع بهم عن ذلك التشبيه.

لجأ امرؤ القيس من المنذر ومعه ابنته هند وأدرعه وسلاحه، ونزل على رجل يسمى سعد بن الضباب الإيادي سيد قبيلة إياد فأجاره، لكن المنذر ظل يطلبه فتحول عن سعد الإيادي إلى رجل يسمى المعلي بن تيم من جديلة طيء، وعنده فكر امرؤ القيس أن يستقر زمناً، لكن بقية قوم المعلي ضاقوا به، وطردهوا وواحله فخرج من عندهم قاصداً رجلاً يسمى خالد بن أصمع النبهاني، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله، ففارق امرؤ القيس بني نبهان ونزل عند رجل خليع فاتك يسمى عامر بن جوين الذي طمع في أموال امرئ القيس وابنته هند، وقال فيها شعراً، فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه، خافه على أهله وماله فتغفله وانتقل إلى رجل يسمى جارية بن مر بن حنبل، من بني ثعل، فاستجار به، ووقعت الحرب بين عامر بن جوين وبين جارية من أجله، فدافع بنو ثعل عنه وقدر لهم امرؤ القيس موقفهم وشكرهم في قصيدة هجا فيها خالداً النبهاني الذي توانى عن استرداد رواحله التي أغار عليها بنو جديلة وهو في جواره.

فلما وقعت الحرب بين طيء من أجله خرج من عندهم ونزل عند رجل من بني فزارة يسمى عمراً بن جابر بن مازن، وعنده فكر في الذهاب إلى قيصر ليستنصره على بني أسد،

ولما وصل إلى قيصر قبله وأكرمه وأنزله منزلة حسنة، فاندس رجل من بنى أسد يسمى «الطماح» وكان امرؤ القيس قد قتل أخأله، فقال لقيصر: «إن امرأ القيس غوى عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرأسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك، فبعث إليه حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى خبرك من منزل إلى منزل، فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال فى ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه . ليلبسنى مما يلبس أبؤسا

فلو أنها نفسى تموت سوية . ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها...، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سطح جبل يقال له العسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب . وإنى مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان هاهنا . وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة»^(١).

لأنستطيع أن نشير إلى قصيدة أو مقطوعة أو بيت ونقول إن هذا هو الذى قتل امرأ

(١) الأغانى ص ٣٢١٩ ومابعدها

القيس، فالرجل كما رأينا قد قتل بسبب وشاية الطماح، وهو لم يقل شعراً في ابنة قيصر، فكيف يحق لنا أن نقول إن امرأ القيس قد قتله شعره؟!!

لاشك أن الطماح كان مصيباً في النفاذ إلى نقطة إثارة حفيظة قيصر على امرئ القيس حينما ذكره بعهره وشعره الماجن فوضعه أمام فضيحة كبيرة لا يمكن أن يتجنب حدوثها إلا بقتل الرجل، ولعل سلوك امرئ القيس الخليع وشعره الصارخ مجونا كانا معروفين لدى قيصر، ولعله كان يتوقع مثل ذلك منه، وإلا لاختار الطماح وشاية أخرى أوقع تأثيراً عند قيصر، لكنه أدرك مكان الجرح فنكأه، لذلك لم يصبر قيصر حتى يتحقق من هذه الوشاية، وهذا دليل على توقعه لحادثة كهذه، لذلك لم يكن عقابه لامرئ القيس عقاباً عادياً وإنما رداً على العار الذي توقع أن يلبسه لقيصر من خلال قصيدة أو عدة قصائد في وصف مغامرة أو عدة مغامرات مع ابنته، رداً على ذلك ألبسه قيصر حلة مسمومة يتساقط من تحتها جلده.

لذلك نستطيع أن نقول دون مغالاة أن امرأ القيس قد قتله شعره، أي شعره؟ كل شعره.

محتويات الكتاب

٥	الإهداء
٧	هدية بن خشرم
١٥	كعب الأشقرى
٢٣	عبيد بن الأبرص
٣١	أبو العبر
٣٩	السليك بن السلكة
٤٥	الكميت
٧١	المتنبى
١٠٧	أبو نخيلة
١١٧	مزاحم بن عمرو
١٢٧	طرفه بن العبد
١٣٩	أعشى همدان
١٤٩	وضاح اليمن
١٦٥	بشار بن برد
١٨٧	حماد عجرد
٢٠١	أمرؤ القيس

الانجاس للطباعة والنشر
٢٨ شارع العطار - عين شمس
ت: ٢٤٣٩٣٣٧ - ٢٩٨٦٩٦٥

هذا الكتاب

الشعر صورة من صور البيان والبلاغ وهو فن محبب إلى النفوس وكان في الماضي يعد الوسيلة الإعلامية الأولى التي تؤثر في الناس. فمن ثم عدت من الأنشطة محل الاهتمام من قبل الحكام الذين كانوا يستثمرون الشعراء في مدحهم وتحسين صورتهم والدفاع عن مواقفهم وسياساتهم.

غير ان هناك من الشعراء من شذ عن الطريق وسلك سبيل المخالفة وقام بمناصرة فرق وتيارات معادية لبعض الخلفاء والسلطين وأصحاب النفوذ. فكان مصيرهم الموت..

وهذا الكتاب يلقي الضوء على هؤلاء الشعراء الذين سلكوا هذا السبيل. وسقطوا ضحية شعرهم.

الناشر